مذاهب وشخصيات
مذكرات جحا
بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

. مذاهب
وشخصيات .

مذكرات
جحا ..

بقلم .. محمد فهمي عبد اللطيف ...

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه المذكرات ..

هذه المذكرات لم أبتدع أصلها ابتداعا ، ولم أخترع مادتها اختراعا ، ولكنها فى الأصل أحاديث جحا ونوادره ، مما تناقلته الأجيال عبر السنين الماضية ، وتداولته الألسن فى البيئات المختلفة وقد صنعت من هذه المادة شيئا جديدا ، فأخرجتها فى نسق أوقع فى النفس ، وأوردتها فى أسلوب أمتع للحس ، وجلوت كل نادرة منها فى صورة واضحة الملامح ،كاملة المعالم، وعنيت بهذا الى ابراز العبرة بها ، والمفارقة فيها ، وان فى نوادر جحا ما يفيد وينفع ، كما أن فيها ما يضحك وما يطرب ، فليست هذه النوادر سخفا ، أو هذرا ، ولكنها تنطوى على دلالة بارعة رائعة ، تستهدف أول ما تستهدف ابراز الغفلة التى تنطبع فى بعض الطبائع البشرية وفتح الأذهان المغلقة عن هذه الحياة فى حقيقتها وفى قيمتها ، وهى بهذا مذهب من مذاهب الفلسفة فى الحياة ، وان ظهرت فى هذا الأسلوب المضحك العجيب .

ومهما يكن من خلاف بين الباحثين فى حقيقة جحا ووجوده فانه لا شك حقيقة موجودة فى نفس كل انسان وتصوره لأنه الشخصية التى تفتقدها كل أمة استكمالا لجانب من شخصيتها وهو جانب يختفى دائما وراء

أحداث الحياة ، وتقاليدالمجتمع وتدافع الناس فى غمرة الصراع على الرغيف ، ولكنه يظهر ويتجلى واضحا فى مجال التحرر من القيود ، والانطلاق من ربقة التقاليد، أى فى مجال الصراحة والبجبجة ، ومواجهة الأمور مكشوفة على حقائقها ، وهو جانب لا يمكن أن تحيا الأمم بدونه أبدا ، وعلى هذا فليست الشخصية (الجحوية) كما تتمثلها الا صورة خلقتها أوهامالبيئات الشعبية وغير الشعبية فى مختلف الأمم ، ثم حملت عليها ما حملت من نزعاتها وانطلاقاتها ومباهجها ومسراتها ، وتعبيراتها عن المعانى المكبوتة فى نفوسها ، وليست هذه النوادر أو المفارقات التى يتناقلها الناس عن جحا ، أو بلسان جحا الا حكمة الأيام ووعظ الزمن ، وتجربة الدنيا ، وسخرية الحياة ، ومفارقات الذهن الانسانى فى أروع ما يكون من الفطنة والصفاء ، وان حسبها الناس من صنع الغفلة والغباء •

ووجود جحا بهذه الصورة يرجع الى تاريخ بعيد ممتد ، والى عهود طويلة مضت ، وقد عاش أستاذ الناس على اختلاف طبقاتهم ومداركهم بهذا التراث الظريف المحبوب ، وسيبقى كذلك على طوال الزمن وتعاقب الأجيال أستاذ الأجيال القادمة المتعاقبة ، لأن نوادره ولطائفه كما قلنا تكمل جانبا من جوانب النفس الانسانية ، والنفس الانسانية لا يتغير جوهرها ، ولا تتبدل نزعاتها الأصيلة فى أى جيل ، ولا فى أية أمة فأنت اذا ما جردت هذه النوادر من أسماء الأشخاص والأماكن التى اقترنت بها فانك لا تعدم أن تجد لها

صورة طبق الأصل من الأشخاص والوقائع التي تجرى في هذا العصر ، وكذلك في كل عصر ومصر •

ونوادر جحا وقفشاته تتميز عن سائر النوادر والقفشات التي تروى عن غيره في معرض الفكاهة والتندر بطابع خاص،هو طابع التهويل في ابرازالملامح الانسانية للأشخاص الذين يعرض لهم بنوادره •فأنت تجده يصور لك هذه الملامح كأوضح ما تكون فيالدلالة على النقص أو الكمال ، وهذه ناحية فنية في رسم الأشخاص يتولى التعبير عنها في هذه الأيام فن (الكاريكاتير) ، ومن ثم نستطيع أن نقول : ان نوادر جحا صور (كاريكاتورية) ناطقة متكلمة ، وهذا ما عنيت بابرازه بصفة خاصة في العرض الجديد لهذه النوادر ، فاذا ما لاحظ القارىء شيئا من هذا في هذه المذكرات فليعلم أنه أمر مقصود وهو أمر يتمشى مع طبيعة الفن الضاحك في هذا العصر •

وبعد فليقرأ هذه المذكرات من شاء أن يقرأها على أنها حديث فكاهة وخرافة ، وليقرأها من شاء على أنها مظهر حكمة وعبرة لما يجرى به الواقع ، وكل سيجد فيها بغيته وغايته،ولكن قبل أن أقدم اليك هذهالمذكرات أرى من حق الوفاء للبحث أن أقدم اليك تعريفا بجحا، وماذا كانت تلك الشخصية بين الناس •

محمد فهمي عبد اللطيف

فانت اذا ما جردت هذه ار
والأماكن التى اقترنت بها فانك

الفصل الأول

مَنْ هُوَ جُحَا ؟

كثير من الشعوب تتحدث عن جحا وهو مذكور فى آدابهـا ونوادرها ، ولكن أحدا لا يعرف على وجه التحقيق من جحا ؟ . وما جنسيته وشخصيته .

فهل كان جحا عربيا ، أو تركيا ، أو ايرانيا ، أو مصريا ؟ .

وما الشخصية التى يتمثلها له كل شعب من هذه الشعوب التى ذاع اسمه بينها على مدى السنين ؟ ..

لعل أحدا لم يرزق من الشهرة وذيوع الاسم على مدى الأيام مثل ما رزق جحا من الشهرة فى آداب الأمم وفى البيئات الشعبية المختلفة ، فقد اشتهر جحا باسمه ونوادره فى الأدب العربى ، وفى الأدب التركى ، وفى الأدب الفارسى ، وفى كثير من آداب الأمم الأخرى، كما ذاع اسمه، وذاعت نوادره فى بلاد العرب ، وفى مصر ، وفى افريقيـــة الشمالية ، وفى تركيا وشرقى أوروبا وجنوبيها وخاصة اليونان والأناضول ، والبلقان وجنوبى روسيا ومقاطعات أورال وفولجا وفى آسيا الوسطى وبلاد القوقاز وايران •

على أنه مع هذه الشهرة الذائعة التى ملأت سمع العالم واستفاضت فى جميع الأمم والشعوب ، فان الباحثين لم يختلفوا فى شىء مثل اختلافهم فى شخصية جحا وفى حقيقة وجوده على هذه الارض ، وفى جنسيته بين الأمم، ويبدو أن هذه الشخصية العجيبة ستظل موضع خلاف بين الباحثين، وسيبقى الرجل بهذه الصورة المرحة التى ترتســـم له فى الأذهان ملكا لجميع الأمم والشعوب •

● فى الأدب العربى ●

ففى الأدب العربى يقولون : ان جحا لقب لرجل اسمه (أبو الغصن دجين بن ثابت) وهو من قبيـــلة فزارة ، وكان فى الـــكوفة ابان ثورة أبى مسلم الخرسانى ، ويزعمون أنه كان من المغفلين ، حتى كان يضرب به المثل فى الغفلة والحمق !

ويروى أيضا أنه كان يتجاهل استهزاء بسخف الناس وسخريته من تصرفاتهم •

وعلى أية حال فان الكتب العــربية لم تذكر كثيرا من نوادر جحا وأحاديثه ولكن يظهر أنها استفاضت بين الناس وذاعت على ألسنتهم حتى جمعها بعض المؤلفين فى كتب : فقد أشار ابن النديم فى كتابه «الفهرست» الى وجود كتاب باسم (نوادر جحا) وقال : انه لا يعلم مؤلفه ، وذكر

من ذلك أيضا عدة كتب فى النوادر ، منها كتاب نوادر أبى ضمضم ، وكتاب نوادر ابن الموصلى .

ويبدو أن المؤلفين لهذه الكتب انما كانوا يؤلفونها للعامة ولتسلية الطوائف الشعبية ، ومن ثم كانوا لا يهتمون بوضع أسمائهم عليها . وعلى أية حال فاذا عرفنا أن ابن النديم قد توفى فى النصف الأخير من القرن الرابع للهجرة أدركنا أن نوادر جحا كانت لذلك العهد قد استفاضت فى البيئة العربية وذاع تناقلها بين الناس .

● فى الأدب التركى ●

أما جحا فى الأدب التركى فيعرف باسم « الشيخ نصر الدين خوجة » وأصل مولده فى مدينة سيورى حصار بالاناضول ، ولكنه عاش فى مدينة « آق شهر » ومات فيها ، وقد اشتغل فى حياته بالدرس والامامة فى بعض المدن ، وساح فى ولايات قونية وأنقرة وبروسة وغيرها ، وفى جوار « آق شهر » مكان غير مسور وله باب عليه قفل كبير يقال : انه قبر الشيخ نصر الدين ، والناس يتبركون به ويعتقدون فيه الكرامات ، ويعلقون به الخرق استشفاء من الحمى والتماسا للبركة على نحو ما يصنعه بعض العامة عندنا فى بوابة المتولى ، وعند زياراتهم لذلك المكان يكثرون من الضحك ، لأنهم يعتقدون أن من زار قبر الشيخ ولم يضحك لم يسلم من نائبة تحل به :

وقد أشار الى جحا الرحالة التركى « أوليا جلبى » وهو يتحدث عن العلماء والصالحين المدفونين فى مقابر « آق شهر » .

فقال : وفيهم عنقاء أهل اليقين المولى حضرة الشيخ خوجه نصر الدين أدرك الغازى « خداوندك » ، ونشأ وشب فى عهد يلدزم وكان حكيما ، وفى أمر الدنيا والدين مستقيما وصاحب فضائل باهرة وذا كرامات وأجوبة حاضرة ، جالس الأمير « تيمورلنك » الذى سر

بمصاحبته ، فلم يخرب مدينة « آق شهر » بل أعفاها من الغارة احتراما له .

وقال «قوبريلي زاده» أستاذ الأدب التركي في جامعة استانبول : انه كان من رجال عهد يلدزم بيازيد ، وأن سلالته هاجرت الى استانبول في عهد مراد الثالث ، ويؤكد قوبريلي زاده شاهدا بالقبر المنسوب الى الشيخ نصر الدين ، ويستشهد لذلك بوجود حجتي وقف شرعيتين معمول بهما وقد نظم قوبريلي زاده أكثر من خمسين نادرة من النوادر الشائعة عن جحا شعرا .

وفي التركية كتاب كبير مشهور ومعروف باسم (لطائف خوجه نصر الدين) وهو يجمع عددا كبيرا من النوادر الذائعة عن جحا في التركية وفي العربية وفي اللغات الأخرى ، وقد ترجم هذا الكتاب السيد/ حكمت شريف الطرابلسي .

ويرى المستشرق (باسيه) أن نوادر الشيخ نصر الدين المعروفة في التركية انما ترجمت عن جحا العربي في القرن الخامس عشر أو السادس عشر ، ويشك (باسيه) في حقيقة وجود الشيخ نصر الدين المعروف بجحا عند الأتراك .

● وفي الأدب الفارسي ●

وفي الأدب الفارسي رويت بعض نوادر جحا في لطائف الشاعر عبيد الزاكاني ، ولكنها لم تذكر باسمه ، وكذلك ذكر جحا وذكرت جملة من نوادره في عهد مولانا جلال الدين كما ذكرت بعض نوادره في كتاب جامع الحكايات لحبيب الله الكاشاني ، وكذلك في كتاب باهارستان لعبد الرحمن الجامي .

وتشيع نوادر جحا بين عامة الشعب الفارسي ، وأهل فارس يؤكدون أنه فارسي الأصل وأنه من أهالي أصفهان واسمه الحقيقي « الملا ناصر

الدين » ، ويعتقد العامة هناك أنه لا يزال عائشا ، ويروون نوادره وحكاياته كأنه على قيد الحياة ، ولا عجب فأهل ايران يشيع بينهم مذهب الرجعية وأهل ايران يتمثلون بجحا صورة ، هي صورة الرجل الحكيم العالم ، ولكنه يسوق حكمته في مجرى الفكاهة والسخرية من الناس ومن الحياة ، وصورة جحا التي يتمثلها له الايرانيون مكررة الى حد كبير من الصورة التي يتمثلها له المصريون •

● في الأدب المصرى ●

وفي أدب الشعب المصرى صورة لجحا هي في الواقع أصدق صورة لهذا الشعب في فلسفته وفي سخريته وفي فكاهته وفي روحه في أقوى وأروع صورة تمثل حقيقة الشعب المصرى بما خلع عليه من روحه ومن عواطفه المكبوتة ومن قسوة الحرمان التي منى بها عبر السنين الماضية •

ويعتقد عامة المصريين أن جحا كان في مصر على عهد المماليك وهم يصفونه بالجرأة على الحكام الظالمين والسخرية من عبوديتهم والضحك من غفلتهم وغباوتهم ، على أنهم من ناحية أخرى يصورونه ناقدا اجتماعيا ، ولو أننا رجعنا الى النوادر التي يحكيها الناس منسوبة الى جحا لرأينا فيها صورا من النقد الاجتماعي المر لما يجرى في المجتمع المصرى سواء في البيت أو في الشارع أو في ميدان العمل أو فيما يتعامل به الناس بعضهم مع بعض •

● وافد من تركيا ●

ويبدو لى أن الشعب المصرى قد عرف « جحا » عن طريق الأتراك يوم أن دخلوا الى مصر ، وأستوطنوها وخلقوا من حولهم مجتمعا تركيا له عاداته وتقاليده واصطلاحاته ، فان الملامح الأصيلة لصورة « جحا » في المجتمع المصرى ملامح تركية ، والنوادر التي ذاعت بين الأتراك عن « جحا » قد ذاعت كذلك بين الشعب المصرى مع التغيير الذى تقتضيه البيئة

فى الأداء والتعبير وحبك النادرة وفقا للمزاج المصرى فيما يؤثر من السخرية والتهكم اللاذع ٠

وعلى أية حال فان الشعب المصرى لم يلبث أن جعل من «جحا» صورة هذا الشعب نفسه المحجوبة وراء سطوة الحكم وقيود الحياة وتقاليد المجتمع ، فهى فى الحقيقة أشبه بصورة « المصرى أفندى » و «ابن البلد» وغيرهما من الصور التى ابتدعها « الكاريكاتير » المعاصر لتكون لسانا معبرا عن الشعب فى رغباته المكبوتة ، وآماله الضائعة ، وحقوقه المهدرة ، بل ان «الكاريكاتير» المعاصر قبل أن يبتدع هذه الشخصيات المعبرة عمد الى ابراز «جحا» ليكون معبرا وناطقا بلسان الشعب ، فكانت بعض المجلات والصحف توجه ماتقصد اليه من القفشات والمغامز الى الحاكمين على لسان «جحا» أو جحا وابنه ، وقد ظلت صورة « جحا » كما يتخيلها الرسامون تطالع الناس فى المجلات والصحف بهذا التعبير حتى انتقل « الكاريكاتير » الى مرحلة الابتداع وخلق الشخصيات المعبرة ٠

الشخصيات المعبرة عن الشعب :

وللشعب المصرى ولع كبير باتخاذ الشخصيات المعبرة التى ينطقها بما يريد ويختفى وراءها فى اعلان رأيه بالصراحة أو بالتورية ، وعلى أنه لا يبتدع هذه الشخصيات ابتداعا أصيلا ، ولكنه يتلقفها من الخارج ، ثم يصنعها صنعا آخر على هواه ، ووفقا لروحه وطبيعته ، وما يتمشى مع ميوله وانطلاقاته فى الحياة ٠

فقصة « أيوب » الذى اشتهر بالصبر ، والتى نبتت فى أرض العبرانيين ، وتضمنها سفر من أسفار العهد القديم تلقفها الشعب المصرى من حيث نبتت ، وخلق من « أيوب » شخصية أخرى هى شخصية « أيوب المصرى » التى هى حديث الناس فى المجتمع المصرى الى اليوم ٠

و « أبو نواس » الشاعر الاباحى الذى عاش فى بلاط الرشيد ببغداد لم يلبث هو الآخر أن جذبه الشعب المصرى من بغداد الى القاهرة ، وصنع

منه شخصية أخرى حمل عليها كل ما فى نفسه من الغرائز المكبوتة ، وفيما يكون بين المرء وزوجه ، وقد اخترع له كثيرا من النوادر والحكايات المكشوفة التى يتلهى بها أبناء الشعب المصرى فى مجالسهم الخاصة ، ويزعمون أنها وقعت من « أبو نواس » مع هرون الرشيد وزوجه زبيدة .

وكذلك كان «جحا» فقد ورد على الشعب المصرى من تركيا بقاووقه وسرواله ، ولكنه لم يلبث أن أصبح من البيئة المصرية « جحا المصرى » فى كل شىء ، وأصبح المتحدث بلسان الشعب المصرى ، فى كل شأن من شئون الحياة ، فهو الواعظ والفقيه ، والفيلسوف والحكيم ، والساخر والضاحك ، وما شئت من كل ما تجيش به عواطف الشعب نحو أحداث الزمن ووقائع الحياة .

● فيلسوف الواقع ●

ولقد قلت لك : ان نوادر « جحا » راجت وتناقلتها الألسن فى جميع الأمم والشعوب ، أو فى أكثر الأمم والشعوب ، وفى الحق ان شعبا من هذه الشعوب لم يستطع أن يفلسف نوادر « جحا » وفكاهاته ، وأن يخلق منها مادة اجتماعية لا يمكنه أن يتجاهلها أى باحث اذا ما أراد أن يتبين طبيعة الشعب المصرى وروحه وفلسفته ، وتقديره للأشياء .

ففلسفة جحا ، أو على الأصح فلسفة الشعب المصرى التى يرسلها على لسان جحا ، هى فلسفة الواقع ، وتقدير الأمور على أساس هذا الواقع ، ويمكنك أن تتبين هذا فى كثير من نوادر جحا التى تدور على لسان الشعب .

قالوا لجحا يا جحا : « بقرة أبوك خدوها الحرامية »

قال : « والله هيه عند الحرامية زى عند أبويا ! »

فهذا منطق الواقع فيما يتعامل به الناس من ايثار المنفعة ، وحماستهم للأشياء على قدر ما يعود عليهم من فائدة ، وقد كان جحا لا يذوق شيئا

من لبن البقرة وهى عند والده ، ولم يكن له منها أدنى منفعة ، واذن وجودها عند الحرامية وعند والده سواء ! ولم يكن هناك ما يستفزه لأن يحمل « نبوته » ويندفع لاستخلاص بقرة أبيه من أيدى الحرامية !

ومن النوادر التى تروى عن جحا :



ماتت زوجة جحا فلم يذرف عليها دمعة ، ثم مات حماره فأخذ يبكى عليه بكاء متواصلا ، وأقبل الناس على جحا يسألونه وهم فى عجب من شأنه : ما هذا يا جحا الذى أنت فيه ؟ ماتت زوجتك فما بكيت عليها قط ، ومات حمارك فأنت فى بكاء دائم عليه !

قال جحا : وما ذنبى أيها الناس ؟ لما ماتت زوجتى أقبل هذا يقول : ان أختى يمكن أن تكون خير زوجة ، وأقبل ذاك يقول : ان ابنتى خير عوض عن زوجتك وانى أزفها اليك بدون مقابل ، ثم مات حمارى فلم أجدأحدا من الناس يقول لى سأعوضك عنه بشىء !

فهذه حجة الواقع يسوقها جحا مما يراه من مفارقات فى طبائع الناس ، وما يجده من البون الشاسع بين أقوالهم وتصرفاتهم ، فليس جحا هو الملوم ، وانما اللوم على هؤلاء الناس فيما يصنعون !

ومن نوادر جحا الشائعة :



قصد رجل الى جحا فى بيته يسأله أن يعيره حبل الغسيل ، وخاف جحا زوجته فاعتذر للرجل بأن الزوجة نشرت على الحبل دقيقا ، وتعجب الرجل وسأل جحا مستنكرا : وهل الدقيق ينشر على الحبل يا جحا ؟ فقال جحا : اذا لم يكن لى غرض فى أن أعطيك الحبل فانى أقول لك : ان الدقيق والماء والهواء كلها تنشر على الحبل !

وهذا أيضا هو منطق الواقع وحجته ، فما دام قصد الانسان الى منع

شيء أو رفض طلب فليس المطلوب أن يقدم الحجة القاطعة في تبرير هذا المنع أو الرفض ، ولكن كلمة تقال لصرف السائل بأى من الأسباب !

وهكذا ، فأنت اذا ما تتبعت نوادر جحا ، أو فى الحق أكثر النوادر التى يسوقها الشعب المصرى على لسان جحا ـ تجدها كلها على أساس هذا « الواقع » فى وزن الأمور والحكم على الأشياء ، وهـــذا هو ما عنيت بابرازه فى اخراج نوادر جحا على نحو ماتراه فى هذا الكتاب .

● جحا فى القرية ●

ولا بد أن نشير هنا الى أن شخصية « جحا » فى القـرية المصرية لها طابع يخـالف طابعها فى المدينة ، ويمكن أن نقيس الفرق بين الشخصيتين بمدى الفرق الواضح بين مجتمع القرية ومجتمع المدينة :

فنوادر « جحا » التى تتناقلها الألسن فى القرية حكم وأفعال تدور حول الزرع والماشية وما هـو من شأن معيشة الفلاح ، « وحواديت » تجرى عن الحياة الزوجية والعلاقة بين المرأة والرجل وزوجة الأب ومناكفات الضرة ، وهى « حواديت » أكثر الحديث فيها مكشوف ، ان صح أن يجـرى بين النـاس فى مجالسهم الخاصـة فلا يصح أن يكون موضوعا يعرض فى معارض الكلام المكتوب الذى يتداوله سائر الناس •

● أتباع جحا ●

ولا يذكر جحا فى أى أدب ، ولا فى أية بيئة الا تذكر معه ثلاث شخصيات أخرى كأنها متممة لشخصيته ، وهى زوجته وابنه وحماره ، وكل من هذه الثلاث شخصية فريدة فى بابها ، متميزة بكثير من الخصائص والمفارقات :

فزوجة جحا مثال الزوجة العنيدة التى تقف دائما لزوجها بالمرصاد وفى كل ما يقول وما يعمل ، كانت الحياة بينهما خلافا دائما ، وشـجارا

مستمرا ، وهو يكيد لها وهي تكيد له ، وفي هذه المكايدات التي لا تنقطع تتجلى أروع المفارقات بين جحا وزوجته •

وابن جحا أيضا شخصية فذة بين الأبناء في فضوله وفي ثرثرته وفي تدخله فيما لا يعنيه ، ثم في ترسم خطى والده فيما يقول ويعمل ، والولد سر أبيه كما يقولون •

أما حمـار جحا فهو مثال الحمار البليد العنيـد الذي تشق بلادته المرائر ويخرج عناده النفس عن طورها •

فهـذه الشخصيات الثـلاث هي ظـلال جحا ولوازم شخصيته التي لا تنفك عنها ، وبها تكتمل روعة الفارقات الجحوية ، وما زالت روعة الفن تتجلى في كلمة يلقي بها عقل مجنون ، أو طرفة يجري بها لسان جاهل، أو حقيقة ينطق بها عابث من العابثين •

وما زال النّاس من قديم الزمان مولعين بكل حاكم مسلط ، أو متحكم غاشم ، أو حاكم ظالم ، يرسـلون ألسـنتهم من ورائه بالنـادرة القارصة ، والنكتة اللاذعة والسخرية التي تجري مع الزمن مجرى المثل والحكاية ، وكل هـذا عما هو مكبوت في نفوسـهم من الآمال والآلام ، ولأمر ما اقترنت شخصية جحا بشـخصية الطاغية تيمورلنك في الأدب التركي أو شخصية قراقوش في الأدب المصري ، ولأمر ما كذلك تولى جحا القضاء وكان له الحكم بين الناس ، وسواء أكان هذا حقا جرى به الواقع ، أم من تلفيق الأجيال ، فانهما لاشك ناحيتان تمت بهما الشخصية الجحوية في أروع ما تكون ، ولهذا كله عنينا في هذه المذكرات بعرض شخصـية جحا كاملة بكل لوازمهـا وظلالهـا حتى لتراه ماثلا أمامك مع الناس ، ومع تيمورلنك وفي منصة القضاء ، ثم مع حماره وزوجته وابنه !

الفصل الثاني

جحا والناس !

لقد عاش جحا مع الناس على اختلاف طبقاتهم، وخالطهم على تباين مراتبهم ، أما الناس فهم الناس كما كانوا فى الماضى ، وكما هم فى الحاضر ، وفى المستقبل ، وأما جحا فأنت لا تدرى هل كان مع الناس عالما أو جاهلا ، وزاهدا أو معربدا ، وعاقلا أو مجنونا ، وحكيما أو مأفونا ، وفى هذا الفصل نقدم اليك أحاديثه مع الناس ، لعلك تتبينه عند واحدة من هذه الصفات أو مجمعا لكل هذه المتناقضات ٠

هؤلاء هم الناس :



كنت أسير فى الطريق فأدركنى الجوع ، وكان معى من الزاد ما يكفى الغذاء وزيادة فقلت لنفسى : ان الجوع مضرة ، ودفع المضرة واجب فى أى مكان ، وعلى أية حال ، ولا بأس من أن أجلس للطعام حيث أسير فمن قبلى جلس حكيم اليونان (ديوجينيس) يأكل على قارعة الطريق ، ولم يبال الطاغية الجبار الاسكندر المقدونى فى شىء .

ونزلت عن حمارى وتركته يسعى لعله يصيب شيئا من حشائش الأرض ، ثم مددت الزاد بين يدى وهويت عليه ألتهمه التهاما ، وللجوع

شراسة وضراوة ، ولكن التعس يأبى أن يفارقنى حتى فى أخذ حظى من الطعام ، فقد مر بى رجل يعرفنى من أولئك الرقعاء الثقلاء المتحذلقين وبدلا من أن يبادلنى التحية نظر الى مبحلقا متعجبا ثم قال :

ـ ما هذا يا جحا الذى أنت فيه ؟

قلت : ما فيه سائر الناس •

قال : كلا ، ولكنك تخرج على أوضاع الناس •

قلت : فى أى شىء ترى ؟

قال : أيليق بك فى فضلك وعلمك ، أن تأكل هكذا على قارعة الطريق ؟

قلت : وأى شىء فى هذا يا أخى ؟

قال : ألا تعرف أن هذا مما يزرى بالمروءة ، ويحط من قدر الانسان فى أعين الناس ؟

وضحكت فى نفسى ساخرا ، ورثيت للمسكين فى عقله وفى فقهه ، ثم قلت : وأين الناس يا أخى ؟ •

قال : هؤلاء الذين يمرون بك أفواجا على قارعة الطريق •

قلت : هؤلاء ليسوا بناس ولكنهم بقر !

وأنكر على الدعى الأحمق ما أقول ، وحاول أن يثير الجدل بينى وبينه فى هذا الموضوع ، وخشيت أن يسمع الناس ما بيننا ، والناس فى طبعهم الفضول فيقفوا الى جانبه ، وتدور الدائرة على رأسى ، وقد تنجلى المعركة عن فقد الطعام وحمارى ، ولكن البديهة التى لم تخذلنى قط سرعان ما أسعفتنى بالحجـة الرادعة ، فنهضت من مكانى وقلت : مهـلا يا أخى ، لا تعجل وانتظر حتى أقدم اليك الدليل !

وأسرعت فتلمظت على ما فى فمى من طعام ، ثم ارتقيت وهدة من الأرض وناديت بأعلى صوتى قائلا : أيها الناس انى واعظكم فاستمعوا !

وأقبل الناس يتواكبون من كل ناحية حتى سدوا على الطريق من كل جانب ، ثم ابتدأت حديث الوعظ فقلت : يا بنى آدم أنتم كالأنعام بل أضل ، أنتم حطب جهنم يوم القيامة • فما بقى أحد فيهم الا وقد تحدر دمعه على خده أو أطرق آسفا على حاله ، ثم مضيت أفيض عليهم من روائع هذه الحكمة الباهرة ، وأحدثهم أحاديث الأمم الغابرة ، ولما انتهيت مما فى جعبتى قلت : أيها الناس ، لقد جاء فى الأثر أن من أخرج لسانه فضرب به أرنبة أنفه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فما بقى أحد منهم الا وقد أخرج لسانه ، وراح يحاول أن يضرب به أرنبة أنفه •

فالتفت الى صاحبى وقلت :

« انظر أيها الأحمق الدعى ، أناس هؤلاء ، أم بقر ؟ »

ضيف عزيز :

هبط على رجل غريب السحنة ، عجيب الخلقة ، تبينت أنه أخو سفر وابن سبيل ، فتلقيته بالبشاشة ، ورحبت به أكرم ترحيب ، فانى أعرف أن اكرام الغريب واجب ، وأن لهذا عند الله ثوابا عظيما •

وبعد أن بادلت الرجل التحيات والسلامات قلت : ان الوقت وقت الغذاء ، وأنت قادم من سفر ، وليس كالسفر قدرة على انهاك الأجسام وهضم الطعام ، فهل لك أن تصيب شيئا من الطعام ، تهدىء به ثائرة أمعائك وترد به غائلة الجوع ؟

فقال : لعلك تعذرنى فى هذا فاننى لا أجد ميلا غلابا الى الطعام ، وأطمعنى اعتذار الرجل فعدت أؤكد وألح عليه فى تقديم الطعام ، فقال : والله لا بأس من جبر الزاد اكراما لأهل الدار ، ولحسن حظ الرجل ، أو ان شئت فقل لسوء حظى ، ولخراب بيتى لم تكن زوجتى فى البيت ،



والا كان وجودها مانعا من تلك الكارثة التى حلت بمعاشنا وزادنا ، وما استطعت أن أتمــادى فى الغى هــذا المــدى ، فأجلب على البيت الدمار والبوار !

فقد نهضت بنفسى وأحضرت أربعة أرغفة من الخبز النقى الشهى كأنها والله فى استدارتها وبياض صفحتها أربعة أقمار ! ثم وضعتها بين يدى الرجـــل وعدت الى داخـل البيت لأحضر له ما يجب من الطبيخ والادام ، ولكنى عنـدما رجعت وجـدته قد أتى على الأرغفة الأربعة ؟! فوضعت أمامه ما أحمل من الأوانى والأطباق وعدت مرة ثانية لأحضر بضعة أرغفـة أخرى ، فلمـا رجعت وجدته قد لعق كل ما فى الأوانى والأطباق !

وهكذا أخذت أعيد الكرة بعد الكرة : أحضر الخبز ، ثم أحضر الطبيخ ، وهو ينسف كل ما يقدم اليه نسفا حتى أتى على كل ما عندنا من خبز وطبيخ ، وكان يجلس متلمظا كأنه يطلب المـزيد ، وجلست الى جانب الرجـل بعد تلك المعـركة الطاحنة الماحقـة أتأمل خلقته العجيبة وسحنته الغريبة ثم قلت :

ــ الى أى البلاد يقصد الشيخ ؟

قال : الى بغداد ان شاء الله ٠

ــ قلت : ألك أهل فيها أو منصب بها ؟

ــ قال : كلا ولكنى أشكو مرضا فى المعدة منذ عامين قلل من ميلى للطعام ، وقـد سمعت أن فى بغـداد طبيبا حاذقا له فى طب المعـدة خبرة وتجريب ، فقلت : أقصد اليه لعل أن يكون على يديه الشفاء من هـذا الداء !

ــ قلت : كتب الله لك السلامة فى سفرك ، وفى معدتك ، ولكن يربك اذا قدر لك أن تعود من بغداد فلا تجعل طريقك عن هذا البلد !

مأدبة اللئام :



دعيت الى وليمة عند كبير من كبراء بلدتنا ، فقلت : ذلك فضل نناله على موائد الأغنياء فى النادر القليل ، وليس من اللائق أن نفرط فى ذلك القليل ، وقديما قيل : من دعى فليجيب ولا يأبى الكرامة الا لئيم ، وناهيك بدعوة الى طعام شهى ، يدفع الدم فى الشرايين حارا قويا ، ويكسب الجسم حمرة الصحة والعافية •

وجلست أحسب الوقت لموعد الطعام ، وأصور للنفس ما سيكون على الخوان من ألوان ، والحق أنى طويت اليوم خاويا جائعا ، حتى أقبل على المعركة وأنا متسلح لها بسلاح الجوع الذى لا يفل ، فما قارب الموعد حتى نهضت للأمر مهرولا ، واندفعت فى الطرقات على غير هدى ، ولكنى

ما كدت أشرف على أهل الدار ، وأقترب من الجمع الحاشد لافتراس الوليمة ، حتى رأيتهم يصدونني عن قصدي ، ويقفون عقبة في سبيل غرضي : هذا ينظر الى جبتي الممزقة ، ثم يدفعني بيده الى الوراء ، وذاك يحدق في ثيابي الوسخة ثم يقول لي : ما هذا الوباء ؟ وثالث يضرب في صدري بيديه وهو يقول : ليس هنا مكان للمتسولين ، حتى الأطفال أخذوا يجذبونني من ذيل ثوبي وهم يعبثون ويضحكون ، وبهذا أصبح وصولي الى مكان الطعام أشد عسرا من ولوج الجمل في سم الخياط !

فعدت منكسر الخاطر أحمل بين جنبي حسرة أليمة على ما فاتني من تلك الوليمة ، وجعلت أعزي نفسي بالكلام قائلا : لا بأس فهذا حظ الكرام من موائد اللئام .

على أني سرعان ما تمالكت نفسي وجمعت شتات فكري ، وقلت : ان الطعام الشهي لايصح التفريط فيه بهذه السهولة ، ولا بأس أن يركب الانسان في سبيله الخطر ، ويتلمس في الوصول اليه كل حياة ، وعلى هذا خطر لي الخاطر في معاودة الهجوم من جديد ، فأسرعت الى البيت وتقمشت بما عندي من قماش مليح ، وارتديت جبتي الفضفاضة ، ومشيت في هيئة وقور حتى أشرفت على أهل الوليمة ، فلما رآني الحاضرون أخذوا يفسحون لي الطريق ، ويمشون بين يدي مرحبين مسرورين ، وأنا في كل ذلك أنظر اليهم في اغضاء ، وأرد عليهم التحية في اباء ، وما زلت حتى انتهيت الى مكان الطعام فهيئوا لي مكانا في الصدر بين الجالسين .

وقدم الطعام ألوانا وأصنافا ، وكانت وافرة كثيرة وكلها شهية لذيذة فأخذت أخوض المعركة ذات اليمين وذات الشمال وأغوص بيدي في كل اناء ، والأسنان تقطع والحلق يبلع ، حتى امتلأت وتضلعت ، وما كان لي وقد نلت غايتي ، أن أنسى لأصحاب الفضل فضلهم ، فسرعان ما نهضت ونزعت جبتي وألقيت بها على الطعام فغاصت أطرافها الواسعة في الادام ،

وفزع الجالسون مما رأوا وتعجبوا مما شاهدوا ، وأقبلوا على يقـولون : ما هذا أيها الشيخ الذى صنعت ؟

قلت : يا قوم حسبكم فما صنعت الا الاعتراف بالجميل وان الجبة تعرف من هذا ما لا تعرفون ، فلولاها ما جلست بينكم على مائدة اللئام وهى أولى منى بالاطعام والاكرام !

مكتوب السلطان :

لا أعرف فى الحياة شيئا أشقى للنفس من فقد أكلة شهية والحرمان من مائدة حافلة تتوقع الدعوة اليها ، وتهيىء نفسك للفوز بأطايبها ، ثم تترك فى المهملين ، وتبقى حسرتها فى قلبك ما عشت فى هذه الحياة ! وانه والله لأهون على من أن أفقد عضوا من أعضائى ، أو أصاب فى زوجتى وحمارى ، من أن أفقد الظفر بمثل هذه المائدة ، ولهذا لم أشأ أن أترك نفسى فريسة هذا الحرمان فأعيش بقية حياتى حليف الحسرات والأحزان !

فقـــد جاءنى الخبر اليقين بأن رجـلا فى حينا من أهل الوجاهة وأصحاب الجاه قد أعد وليمة فاخـــرة شهية لبعض أصـحابه ومن على شاكلته .

فقلت : انها لفرصة سعيدة ، وانك لا بد مدعو مع القوم ، فمقامك غير مجهول بينهم ، ومكانتك غير منكورة عند الناس !

وهيأت نفسى ، واستكملت عدتى ، وأخذ ريقى يتحلب شوقا لهذه الغزوة الظافرة فى الطعام والادام ، ولكن الوقت يمضى ولم يطرق بابى داع ، أو يأتينى رسول ، فقلت : من يدرى ، لعل الرسول فى الطـريق وهو يمشى بخطا وئيدة متبلدة لأن أمرى لا يعنيه ، فاخرج ولا بد أنه سيقابلك فى الطريق !

وخرجت أقطع الطريق عدوا ووثبا حتى انتهيت الى دار الرجل ،



فعلمت أن المائدة قد مدت وأن القوم قد نهضوا لالتهام ما عليها من ألوان الطعام ، وأنني لم أكن في الحسبان !

وطاش صوابي ، واشتدت حسرتي ، ولم يكن في مقدوري أن أستسلم فأرضى من الغنيمة بالاياب ، وكان لا بد لي أن أفكر في بلوغ الغاية بأية وسيلة ، والاحتيال لذلك بأية حيلة .

.. ولكن ماذا أصنع ؟ فلو أني طرقت الباب فان الخادم سيمنعني من الدخول ، ولو أني تظاهرت بالسؤال عن صاحب الدار حتى يلتقي وجهي في وجهه وتخاطب العين العين فانهم سيقولون لي انه غير موجود ! وسرعان ما أمدتني بديهتي بالحيلة التي فتحت لي باب الطريق ، فأخرجت من بين ثيابي ورقة ورفعتها في يدي ، ثم قرعت الباب بشدة ، فخرج الي خادم تبدو عليه الفظاظة والشراسة قائلا :

ـ ماذا تريد ؟

قلت : هل سيدكم موجود ؟

قال : وما حاجتك اليه ؟

فلوحت بالورقة في الهواء وقلت : عندي مكتوب له من السلطان !

فما كادت الكلمة تصل الى أذنه حتى بادر ففتح الباب ، وأفسح الطريق ، ومشى أمامي بالتبجيل والتعظيم ، ينادي على سيده لأخذ مكتوب السلطان .

وقابلني الرجل بالتبجيل والتعظيم أيضا ، وهو يتلهف على رؤية مكتوب السلطان ، فناولته الورقة ، ثم انقضضت على المائدة فأخذت مكاني بين الجالسين ، وشمرت لاقتحام الميدان على الآكلين .

وقلب الرجل الورقة ظهرا لبطن ، ولكنه لم يجد شيئا فيها ، فنظر الي في غيظ وبلاهة وأنا ألتهم الطعام قائلا : ولكن الورقة ليس فيها أي

شيء ! قلت : أجل أيها السيد الكريم ، لقد كنت متلهفا على الطعام ، فلم تترك لى السرعة وقتا لكتابة الكلام !

حكمة الله :

ليس أدعى الى الفكرة السديدة الرشيدة ، وليس أنشط للعقل فى الرأى والحكم ، من أن تسير فى الخلاء منفردا ، ففى كل خطوة مجال للعقل ، وفى كل لفتة مثار للفكر ، حتى لكأنى بجميع الخاطرات اللماحة تحتشد كلها فى ذهن الانسان فيصير وكأنه معترك الأفكار •

هذا ما أعرفه من نفسي ، ولست أعرف شأن الناس فى هذا ولا بد أن يكونوا كذلك الا أن يكون هؤلاء الناس قد خلقهم الله من طبيعة غير طبيعتى •

وسواء أكان الناس مثلى يفكرون ويفهمون أم لايفكرون ولايفهمون فان هذا لا يعنينى ، وانما الذى يعنينى أن أقول : هو أنى خرجت فى يوم للنزهة حيث الرياض والغياض ، والربا والوهاد ، وكان الجو صحوا والهواء رخوا ، فاستغرقنى التفكير العميق كعادتى : تارة يرجع بى الفكر الى الوراء ، وأخرى يقفز بى الى الأمام • وبينا كنت أسير على هذه الحال لمحت عند صخور الربوة نبتة بطيخ دقيقة الغصن رقيقة الفرع ، وقد أثمرت ثمرة كبيرة من البطيخ ينوء بحملها حمارى •

فقلت : تباركت يا ربى ما أعظم قدرتك ! أهذه النبتة الصغيرة الضعيفة تثمر هذه البطيخة العظيمة ؟ ولكنها قدرتك أكبر وأعظم •

ثم مضيت فى سيرى أفكر فى حكمة الله ، حتى انتهيت الى شجرة لوز ضخمة الساق ، كثيرة الفروع ، قوية الأغصان ، محملة بالأثمار ، فطاب لى أن أستريح فى ظلها ، وأن أقضى ساعة فى رحابها •

وتمددت مستلقيا على ظهرى ، وعاودنى التفكير فقلت فى نفسى :



يالله ! أهذه الشجرة الكبيرة الفارعة تحمل هذه الثمار الصغيرة التى لا تعدو فى حجمها أطراف الأنامل ، على حين أن نبتة البطيخ الهزيلة تحمل تلك البطيخة الكبيرة الثقيلة ؟

وامتد بى التفكير ، فأخذت أدير الأمر فى عقلى فلم أهتد الى حكمة لذلك ، فقلت لنفسى متعجبا : أما كان الأجدر أن يكون ثمر شجرة اللوز فى حجم البطيخ ، وثمر حبة البَطيخ فى حجم اللوز حتى يشاكل كل فرع أصله ؟

ولكنى لم أفرغ من الحديث مع نفسى بهذا السؤال حتى هزت الريح الشجرة وسقطت منها لوزة ، واذا بها تسقط على أم رأسى ، واذا بها تشج رأسى شجا يقطر منه الدم !

فنهضت صائحا من الألم وأنا أقول : تباركت يا رب ! تباركت يا رب ! لقد أدركت حكمتك الباهرة ، فلو كانت ثمرة اللوز فى حجم البطيخة لكنت الآن مع أهل القبور !

طبيعة اللئام :

خرجت مسافرا ، وبينما كنت أجتاز البرية رأيت أعرابيا جالسا فى ظل نخلة ، يتناول غذاءه وقد مد الطعام بين يديه من اللحم والرقاق والجبن والتمر ، فسلمت عليه ، فرد السلام ولم يزد ثم قال :

ـ من أين الرجل ؟

قلت : من حيكم ، وواحد من قبيلتكم .

قال : هل علمت شيئا عن ولدى عثمان ؟

قلت : بارك الله فيه ؛ انه زينة الصبيان يملأ الحى لعبا ومرحا وجريا ووثبا .

قال : وأم عثمان كيف هى ؟

قلت : كأنها فلقة القمر تلبس لباس الجمال والكمال ، ولا تخرج من باب الدار الا منحرفة الجانب !

قال : وكلبى الدفاع كيف هو ؟

قلت : يملأ الحى نباحا والنـــاس فى أمن على أنفســـهم وأموالهم ليقظته .

قال : وجملى مناع ؟

قلت : تبـارك الله يروق العين منظـــرا وقد سمن حتى صـار له سنامان !

قال : وهل دارنا على حالها ؟

قلت : هى كعهد الناس بها عالية يستظل بها الناس والرائحـون والغادون ، ثم مضى الرجل فى طعامه غير حافل بى ولا مبال بى ، وتحرك فى نفسى الميل الى الطعـام وأخذ بطنى يقـرقر نهما اليه ، وليس هناك ما يبعث الرغبة فى الطعام مثل أن ترى غيرك على الطعام ، وحاولت أن أنبه الرجل لعله يدعونى الى اصابة شىء من طعامه : فمرة كنت أسعل ، ومرة كنت أتمطى وأتثاءب ولكنه صم أذنيه عنى !

وصـــادف أن مر بنا كلب هـزيل أعجف وأقبـل على الأعرابى يبصبص بذنبه لعله أن يلقى اليه بكسرة ، ولكن الأعرابى ضحك ضحكة غليظة كأنها نهيق الحمار ثم قال لى :

ـ هيهات أن يكون هذا الكلب مثل كلبنا الدفاع ؟

قلت : ان كلبكم أحسن لولا أنه مات .

فصاح : وامصيبتاه أمات كلبنا الحبيب ؟

قلت : أجل مات فقد كان ينهش رمة جملكم مناع ، فعلقت بحلقه قطعة عظم فغص بها فمات !

قال : وجملنا أيضا قد مات ؟ وكيف مات ؟

قلت : عثر بقبر أم عثمان فوقع فانكسر فمات •

فقال : وهل ماتت أيضا أم عثمان ؟

قلت : أجل ماتت حزنا على عثمان •

فأخذ يضرب رأسه ويقول : ولدى عثمان مات ؟

قلت : أجل وقعت عليه داركم فمات !

فانطلق يعدو فى البرية وهو يصيح : وامصيبتاه ! واحسرتاه ! وقد ترك طعامه فى مكانه فحططت فيه حتى أتيت عليه •

وهكذا طبيعة اللئام ! لا تستطيع أن تأكل فى هنائهم ، وانما تأكل فى عزائهم !

الأغلاط الكبيرة :

نزل على اقليمنا رجل من الغالبين الفاتحين ، وكان أول ما أخذ فيه أن أمر بجمع السلاح من الأهالى وقد فعل •

ولست أدرى لماذا صنع الرجل هذا الصنيع بالناس ، ويبدو لى أنه أراد أن يقلم أظفارهم وأن ينتزع مظهر القوة فيهم حتى لا يجد منهم مقاومة اذا ما عسف بهم أو اغتصب أموالهم • وعلى أية حال فالأمر لا يعنينى ، لأنى لست من حملة السلاح ولا يفزعنى شىء مثل استعمال السلاح ! ثم انى لست من أصحاب المال حتى أخاف على مالى سطوة هذا الجبار أو عبث اللصوص ! وما دام الأمر لا يعنينى لم أجعل له تقديرا عندى •

وفي يوم كنت أعبث في دارنا فعثرت بين مخلفات قديمة على خنجر أعجبنى نصله الدقيق ، ومقبضه الرشيق ، فتناولته وهززته فى يدى كما يهز الفارس سيفه عند اقتحام الميدان ، ثم قلت : لا بأس والله من أن أعلق هذا الخنجـر فى منطقتى حتى أبدو فى مظهـر القوة والسطوة ، فتكف زوجتى عن شجارى ونقارى ، وما زالت المرأة أشد ما تكون اذعانا للسطوة ، وما هؤلاء الناس جميعا الا عبيد القوة !

وازدهانى العجب بنفسى فخرجت أخطر فى الطريق مزهوا بخنجرى كأنى فارس الهيجاء ، وليس على بالى من شىء •

ولكنى ما كدت أمضى فى الطريق خطوات حتى ابتدرنى رجل فظ غليظ من أتباع الحاكم ، وأمسك بتلابيبى وأخذ يدفع فى ظهرى دفعا عنيفا وهو يقول : كيف تخالف أمر الحاكم أيها الشيخ العجوز الشرس؟ لا بد أن تنال جزاءك على هذه المخالفة •

ولم أجد فى الناس حتى من أهلى وعشيرتى من يغضب لاهانتى أو ينقذنى من ورطتى ، ولم أعجب لذلك ؛ فان الناس لا يستذلهم شىء مثل الخـوف والرعب ، ومتى كانت هناك قوة وسـطوة فانما تكون كلمات النجدة والمروءة والشهامة حديث خرافة •

ومثلت بين يدى الحاكم وأنا فى فزع لا يوصف ولا يعرف ، واذا به ينتهرنى فى غلظة قائلا :

أهذا أنت أيها الشيخ الأحمق تخالف أمرى وتخرج عن طاعتى ؟

قلت : كيف أخـــرج على طاعة مولانا الحاكم العظيم وأنا شـيخ لا مأرب لى ولا غاية عندى الا اطاعة الغالبين الفاتحين ؟

قال : وما صناعتك ؟

قلت : شيخ فقيه أنفق وقتى كله فى تأليف الكتب المفيدة وكتـابة المسائل العجيبة •

قال : « وايش » هذا السلاح البتار وشأنه بالكتب المفيدة والمسائل العجيبة ؟

قلت : أبقاكم الله سيدا للعارفين فانى أصلح به أغلاطى فى الكتابة.

قال : ان الأغلاط فى الكتابة انما تصلح بشىء خفيف رقيق .

قلت : كلا يا صاحب العقل الرشيد والرأى السديد ان أغلاطى فى الكتابة كبيرة ، والأغلاط الكبيرة لا يصلحها الا السلاح الكبير !

الدقيق على الحبل :

ليس أثقل على نفسى من أولئك الثقلاء الذين يصرون على مشاركتى فى الانتفاع بما أملك ، فكأنهم ورثتى وأنا على قيد الحياة ! وكأن من حقهم تقسيم تراثى بينهم وأنا أرى وأسمع ! فترى الواحد منهم يقصد اليك فى قضاء متاع من أمتعتك ، أو شىء مما فى بيتك ، فتعتذر له برفق مع أن العذر يجب ألا يلزمك أبدا ، فان المتاع متاعك ، وأنت صاحب التصرف فيه ، ولك أن تعطى وأن تمنع ، ولكن الثقيل الصفيق يأبى الا أن يناقشك فى اعتذارك ، ويخجلك فى احتجاجك ، فقد جاءنى جارنا وأنا جالس فى صحن الدار ، وطلب أن أعيره حبل الغسيل ، لتنشر عليه زوجته ثيابه ، وأنا أعترف أن جارنا رجل طيب حقا ، وزوجته طيبة ، يجب أن تقضى لها الحاجات ، كما أعرف أيضا أن الجار للجار ، وقد قرأت فى حكمة الايام ، أنه ليس ألأم طبعا من رجل يمنع الماعون عن جاره ، فنهضت لساعتى ودخلت على زوجتى ، وهى فى شغل البيت ، وقلت لها : ان جارنا قد جاء يطلب حبل الغسيل منا ، لتنشر عليه زوجته ثيابه ، ولكنى ما كدت أتم الكلمة ، حتى انطلقت زوجتى على طبيعتها ، تسب جارنا وزوجته ، وتلعن الزمن الذى جعلنا لهم جيرانا ، وامتد لسانها بالسب حتى تناول سابع جار !

ورأيت نفسى ازاء هذا بين أمرين : فاما أن أحمل هراوتى فأضرب

المرأة على رأسها ضربة قاضية تؤدى بها الى القبر، وتؤدى بى الى السجن ، وأجلب على نفسى بهذا الشقاء الأبدى فى شىء لابد لى منه ، واما أن أتصرف فى الأمر بالحيلة وأصرف الرجل بعذر لائق ، وكفى الله المؤمنين شر القتال والحبال !

وقد آثرت الأخرى ايثارا للسلام ، فخرجت الى الرجل وقلت له : معذرة يا جارنا العزيز ، لقد كنت حريصا على أن أعيركم حبل الغسيل ، ولكنى وجدت زوجتى قد نشرت عليه دقيقا ! وأبى الغبى أن يفهم ما أقول، فقال : وهل الدقيق ينشر على الحبل يا جحا ؟ فقلت : أجل ، اذا لم يكن لى غرض فى أن أعطيك الحبل ، فانى أقول لك : ان الدقيق والهواء والماء كلها تنشر على الحبال !

السلامة افضل :

اذا ضاع الحق بين قوم ، فاعلم أنك لن تستطيع أن تقيم بينهم ـ وفيك بقية من عقل ـ وليس لك الا أن تتلمس للسلامة أقرب طريق ، والا فلا بد أن تهلك .

وماذا يجدى العقل اذا كانت الأمور تجرى بأضدادها ، والأوضاع تسير على عكس مفهومها وكل شىء يؤخذ بنقيضه ؟ فاذا أذنب غيرك كنت أنت المذنب ، واذا أساء سواك كنت أنت المجرم واذا صنعت الخير والمعروف قالوا : انك من المغفلين !

أقول هذا وانه لشأنى مع الناس فى هذا الزمان : أثق بهم فيغدرون بى ، وأسالمهم فيجنون على ، وأصنع معهم الخير فلا أجد منهم الا كل شر ، ومع هذا لا أسلم من ألسنتهم ومن استخفافهم !

لقد وسع الله على مرة فى الرزق بعض الشىء ، وجاءتنى نفحة مال من رجل غنى هى فى الحقيقة أجرة شهر قضيته فى تعليم أولاده الأغبياء،

فقلت لنفسى : يجب ألا يضيع هذا المال هدرا ، ولابد أن أشترى به متاعا للبيت ينفع للزمن !

وقصدت الى السوق واشتريت كثيرا مما نحتـــاج اليه من متاع فى البيت ، وما كان معى حمارى هذه المرة ، فناديت على حمال ليحمل عنى ما اشتريته ، ويشهد الله أننى لم أدقق مع الرجل فى الأجر ، بل لقـد منحته الأجر مقدما ، وأعطيته ضعف ما يستحق ، وأكثر مما كان يتوقع وسار الرجل بحمله ، وسرت من خلفه الهوينى ، ولكن الخبيث غافلنى فى وسط الطريق وهرب بُما يحمل !

وانطلقت أبحث عن الرجل فى كل مكان ، وأسأل من أعرف ومن لا أعرف ، ولكن الخبيث لم أقف له على أثر ، وكان الناس كلما عرفوا الأمر ضحكوا منى ساخرين ، واتهمونى بالغفلة والغباوة ، وأبدوا اعجابهم بما فعل معى الماكر الخبيث ، وما وجدت والله أحدا يلوم ذلك السارق على سرقته ، ولكنى وجدت الناس جميعا لى من اللائمين !

وبعد عشرة أيام كنت أسير فى السوق فجذبنى جماعة من أصدقائى وأرشدونى الى ذلك الحمال سائرا بين الناس .

والحق انى سررت بالظفر بالرجل ، ولكن ماذا أصنع ؟ وماذا أجد من العقل فى تدبير موقفى مع الرجل ؟ لقد سارعت فوليت عن الرجـــل هاربا وجرى ورائى أصحابى ، وقالوا : ما هذا أيها الشيخ . أتترك لصـا سرق متاعك ؟

قلت : ياقوم حسبكم لقد غاب الرجل عشرة أيام ، وأخشى أن يدعى على بأجرة هذه الأيام العشرة وهو اذا صنعها فى بلدكم فوالله لن تكونوا له جميعا الا مصدقين !

ومن سرق المصحف :

ضـاقت بى أسباب الارتزاق وأحاطنى العسر من كل جانب ، وأنا

رجل قد اعتدت احتمال العسر كثيرا ، واليأس لا يداخلنى فى أية لحظة من فرج الله القــريب ، ولكن المرأة زوجـتى قد أحالت حياتى جحيما لا يطاق ، والرجل يحكم زوجته بقوة الشــباب وقوة المال ، فكيف وقد فقدت القوتين ؟ وأصبح الصباح ، فركبت حمارى ، وخرجت مهاجرا من تلك البلدة المنحوسة الموكوسة لعلى أصادف قوما كراما يطيب العيش فى كنفهم ، ولعلى أصادف من السعة فى الرزق ما يجعلنى أعود الى تلك المرأة السوء ولى عليها الحول والطول والأمر والنهى .

وانتهيت فى السير الى بلدة رأيت فيها سيما العمران وارتفاع البنيان فقلت : ان الخير تبدو مظاهره على الحيطان ، ويبدو لى أنى فى هذه البلدة سأجد طيب العيش وحسن المقام .

وقصدت من ساعتى الى المسجد كما هى عادة كل وافد غريب ، وكان وقت الصلاة وكان أهل البلدة قد تجمعوا فى المسجد ، فرأيت منهم قوما قد أخذوا للصلاح كل مظاهره : فلحاهم مرسلة على صدورهم ، وعمائمهم مدورة فوق هاماتهم ، وأثوابهم فضفاضة فوق أجسامهم وشفاههم لا تفتر عن التمتمة بالدعوات والآيات فأطمعنى ما رأيت وقلت لنفسى : لقد نزلت على قوم كرام تقاة كما قدرت ، فماكاد امام المسجد يتم الصلاة حتى نهضت الى المنبر ، ثم أخذت فى حديث الوعظ ، وأمدنى الله بفيضه فانطلقت أردد كل باب من أحاديث السابقين ، وأفيض عليهم من آثار الصالحين ، والتأثر يأخذ بالقوم كل مأخذ ، فما انتهيت حتى كانوا جميعا ينشــجون بالبكاء ويشدون لحاهم نادمين !

ثم نزلت لأحظى منهم بالاكرام الذى توقعت ، ولكنى تفقدت مصحفى فلم أجده ، وتملكنى العجب من بكاء القوم الصــالحين النادمين فقلت : يا قوم حسبتكم كلكم تبكون : اذن فمن سرق المصحف ؟

سرق اللحاف :

كانت الليلة باردة والريح تضرب نوافذ غرفتنا من كل جانب ، وكان الليل قد انتصف أو جاوز النصف بقليل ، واذا بى أسمع جلبة مفاجئة فى عرض الشارع ، وضوضاء مختلطة بين أناس كأنهم يتشاجرون فنهضت أستطلع جلية الأمر ، وأحاول أن أعرف الحقيقة فيه •

وحاولت زوجتى أن تثنينى عن ذلك ، فقالت : ان البرد شـــديد والظلام حالك وما يجرى فى الطريق لا يعنينا ، ولا يتصل بأمر من أمورنا ، ولا أحسب أن لنا فائدة من ورائه ، فدع ما لا يعنيك ، ونم فى فراشـــك فاكسب الراحة والعافية ، وعنـدما يشرق الصباح ، ستعرف من الأمر ما يعرفه سائر الناس •

ولأول مرة سمعت من زوجتى كلاما يتسم بالحكمة والعقل وصحة التقدير ، ولكنى أبيت أن أسمع كلامها ، وأن أنزل على رأيها ، وهـــذه أيضا أول مرة أخالف طبعى معها ، وأخرج عن اذعانى لها وقلت : من يدرى أيتها المرأة ؟ لعلها قضية نصيب بها أجرا عند الله ، ومنفعة عنـــد الناس ، أليست الخصومات والخلافات بين الناس مصدر الرزق ، والمنفعة لكثيرين لا يحصيهم العد ؟

وأسرعت فأخذت لحافا جديدا كنت قد اشتريته بتدبير العمر وكان عندنا زينة البيت ، وكانت زوجتى تباهى به الجيران ، وتزدهى على الأقران ، أقول : اننى أسرعت فحملت اللحاف الجديد العزيز ، وتدثرت به وقاية من البرد القارس ، ثم نزلت أعدو الى عرض الطريق وأزاحم بين الناس الذين تجمعوا فى الظلام ، وأتساءل عن سبب الجلبـة والضوضـــاء واذا بخبيث قد جاء من خلفى ، وخطف اللحاف من فوق كتفى ، وولى به هاربا وصحت بالناس لعلهم يدركون السارق الماكر ، ولكن لا سميع ولا مجيب ، وبدا لى أن أعدو وراءه ، لكنى لشدة الظلام لم أتبين موضعا لقدمى ، ثم

لم ألبث أن رأيت المتجمهرين قد انفضوا من حولى ، وعاد الشارع موحشا لا حركة فيه ، ورأيتنى وحيدا فى الطريق ، ينفضنى البرد من الرأس الى القدم ، على أنى وقفت مسلوب العقل عن نفسى ، وما كان يشغل فكرى الا أمر لحافنا الجديد العزيز .

وأخذت أسأل نفسى أسئلة متتابعة بصوت مرتفع لا شك أنه كان يصل الى أسماع أولئك اللصوص السارقين الذين لم يرحموا تعسى ، ولم يشفقوا على فى محنتى ، فكنت أقول لنفسى : هل سرق اللحاف منى حقا ؟ وهل عدمناه من بيتنا الى الأبد ؟ . وماذا أقول لزوجتى عندما أعود اليها ؟ . وكنت لا أستطيع الجواب خوفا من عدم التصديق !

وأخيرا خطر لى خاطر غريب ، فقلت : من يدرينى أن هـــذا كله رؤيا منام ، وأضغاث أحلام ، وأنى نائم فى فراشى ، وأن اللحاف ما زال فى بيتنا ، وأكد عندى هذا الخاطر أنه ليس من المعقول أن أنزل الى عرض الشارع فى مثل هذا الوقت ومع هذا البرد ! على أن التفكير لم يقف بى عند هذا الحد فأخذت أقول لنفسى : أليس من الجائز أننى لست جحا ، وأن جحا نائم فى البيت ، وعلى هذا فاللحاف لم يسرق كما خشيت .

وأردت أن أحسم الخلاف بينى وبين نفسى فأسرعت قاصدا الى الدار لأتحقق الأمر ، فما وصلت الى الباب ، حتى وجـــدت زوجتى واقفة فى انتظار عـــودتى ، لترى ماذا حملت لها ؟ فما رأيت طلعتها حتى أدركت الحقيقة الأليمة ، وتيقنت أنها الكارثة العظيمة ، فجمدت فى مكانى ، وأقبلت على زوجتى تسألنى فى لهفة ، عن خبر المشاجرة ، وعما أفدت منها ، فقلت : اطمئنى يا عزيزتى فقد انفض الخلاف .

قالت : وماذا جرى ؟

قلت : وسرق اللحاف !

نزهة ممتعة :

كان يوما طيبا تمتعت فيه بنزهة جميلة لطيفة ، ولكن مكاريا غبيـــا أبى الا أن يكدره على فى النهاية ، وليس أبغض الى نفسى من الأغبيـــاء والثقلاء !

فقد تجمعت على الديون وتراكمت ، حتى صار فى ذمتى للبقال سبعة عشر قرشا ، وللجزار ثلاثون قرشا ، ولصاحب العلف خمســة قروش ، وللاسكافى قرش ونصف القرش ، وابراء لذمتى أقول : ان نصف القرش كان أجرا لاصلاح الحذاء أما القرش فقد أخذته قرشا ولم أستطع سداده وجرى فى الأيام نحس ، وانسدت أبواب المكاسب فى وجهى ، فتأخرت فى سداد الديون لأصحابها ، وهم كل يوم يلحون فى طلبها ، فيقرعون على باب الدار قرعا مخيفا مفزعا : فمرة كانت زوجتى تنكر وجودى فى الدار ، وثانية كنت أنا بنفسى أنكر نفسى ، وثالثة كنت أنظرهم الى الغد ، ولكن الغد يمضى كالأمس بنحس بعد نحس ، فكان أن ضاق الدائنون ذرعا بمواعيدى المطوطة ، وكان أن تجمعوا أو قل جمعت المحنــة بينهم ، ورفعوا أمرهم الى حاكم البلدة ، ولهم فى هذا كل الحق ، فان المال مالهم ولو كنت مكانهم لصنعت صنيعهم !

وحاكم البلدة كما هو معروف ، يحمل لى كل بغض وسوء ، فانى دائما أكشف للناس قبائحه وأفضح مظالمه ، وأحرضهم دائما عليه ، فما وصل اليه الدائنون بهذه القضية حتى انتهزها الأحمق ليشفى غليله منى ، فحكم بأن أحمل على بغلة ، وأن يطاف بى فى شوارع البلدة ، ومن ورائى الصبيان يصيحون : هذا هو الذى ماطل الدائنين ولم يدفع حقوق الناس !

وترويت فى الأمر قليلا ، ثم قلت لنفسى : انها والله لنزهة طيبة فى شوارع المدينة ، وفرصة للسرور بلقاء الناس ، وليس فى الأمر ما يحط بكرامتى أو يعرضنى لشىء من الخطر ، وماذا هناك الا أن يعرف النــاس أننى فقير ، وليس عندى دانق حتى أستطيع أن أسدد ديونى ، ومتى كان

أهل العلم من أهل الثراء ؟ وهل أصحاب الفضل الا هدف الفقر المدقع ، منذ كان الفضل ، وكان الفقر فى هذه الحياة ؟ ثم من يدرى ؟ لعل أحـد الناس تهزه الأريحية فيحمل هذه الديون الثقيلة عنى فأصبح وأنا عتق هذا الذل الذى لا يطاق !

وخرجت لتنفيذ أمر الحاكم الغبى ، الذى لا يدرى أى فرصة طيبة أتاحها لى ؟ فأركبونى بغلة فارهة لأحد المكارية ، لا أحسب أنى ركبت مثلها من قبل ، ثم سرنا وفى موكبى خمسة من أتباع الحاكم ، وأكثر من مائة صبى يصيحون وينادون ، فقلت : وهذه أيضا لا بأس بها ، فان أتباع الحاكم لا يسيرون الا فى ركب العظماء ، أما الصبيـان فحسبى أن أكون باعث السرور فى نفوسهم ، فقد ورد فى الأثر : ان للجنة بابا لايدخل منه الا مفرحو الصبيان !

ومشينا فى موكبنا نخرج من شارع الى شارع ، وكنت أستزيدهم من السير والتطواف حتى ما أبقينا فى البلدة حارة الا دخلناها ، ولا ناحية الا طفنا بها ، وكان الموكب كلما تقدم السير زاد وطال ، حتى أصـبح كأنه زفة العروس بهاء ورونقا ، وأنا أنظر الى الناس من فوق البغلة فرحا مسرورا •

وأخيرا انتهينا الى دارنا ، ونزلت لشأنى ، وانفض الناس لشأنهم ، ثم تقدم الى المكارى صاحب البغلة يقول :

ــ أين أجر البغلة يا سيدنا الشيخ ؟

ــ أجر البغلة ؟ ألا يا لتعس الأغبياء ، ويا لتعس العقلاء أيضا وفيم اذن أيها الأحمق كنا نصيح طوال اليوم ؟ ولماذا كان هذا الموكب العظيم ؟

سبحان الفتاح العليم :

نزل ببلدتنا ثلاثة من الرهبان يزعمون أن عنـدهم علم النجـوم

وطوالعها ، والسماء وأبعادها ، والارض وحدودها ، وقد طافوا بكثير من البلاد واجتمعوا بالعلماء والشيوخ فيها ، وجادلوهم فيما يعرفون من هذه العلوم السماوية الأرضية فعجزوا جميعا عن الاجابة والافادة وفاز الرهبان عليهم في المناقشة والجدال ، ولهذا الغرض نزلوا بلدنا ليظهروا فيها على أهل العلم والعرفان •

وفزع حاكم البلدة لقدمهم ، وخشى أن يغلب هؤلاء الرهبان علماء البلدة وشيوخها ، فتبوء البلدة بالخزى ، ويشتهر بين الناس أنه على قوم من الحمير جهال ، واهتم الحاكم بالأمر ، فجمع أهل الرأى والتفكير وشاورهم فى التدبير للخلاص من تلك النكبة التى حلت عليهم بنزول أولئك الرهبان ، فاتفق الجميع على انتدابى لهذا الأمر العظيم وقالوا : ليس جحا الا فارسا لهذا الميدان •

وأولم الحاكم وليمة كبيرة جمع لها سائر الناس ، ودعانى للمناظرة فلبست أفخر ثيابى ، وركبت حمارى حتى انتهيت الى دار الحاكم،فوجدت الجمع قد احتشد وتكامل ، فلما وصلت تلقونى بالاكرام ، وقالوا : هيا الى الطعام ، قلت : كلا بل هيا الى الكلام ، ثم تتمتع بعد ذلك بالطعام ، فابرزوا الى أيها الرهبان ، وهاتوا علمكم وأرونى ما عندكم !

ووقف الجميع ينظرون وهم مشفقون ! وأقبل على أحد الرهبان رافعا يده بالسؤال قائلا :

ـ أيها الشيخ : هل لك أن تخبرنا أين وسط الأرض ؟

قلت : يا عجبا ! هل أنت من الغباء الى هذا الحد ؟ أمدد عصاك الى حيث يضع حمارى رجله اليمنى فانك تجده يضعها فى وسط الارض ، بل فى سرتها !

قال : وما الدليل على ذلك ؟

قلت : أمامك الأرض فقس أبعادها ، وحدد أطرافها ، فانك تجد صدق ما أقول والا فأنت غبى جهول •

ولم يستطع الأبكم أن يتنفس أمام تلك الحجة الصادعة القاطعة ، ورجع الى الوراء مهزوما مدحورا ، والقوم من أمرى وأمره يتعجبون !

ويتقدم الراهب الثانى فقال : أيها الشيخ العظيم : لقد ثبت أنك عالم بالأرض وأبعادها ، فهل لك أن تخبرنى عن عدد نجوم السماء ؟

قلت : وهل يجهل هذا الا الأغبياء ؟ ان عددها أيها الدعى عدد شعر حمارى سواء بسواء !

قال : وكيف ذلك ؟

قلت : لقد عددت النجوم وعددت شعر الحمار ، فوجدت العددين متفقين وها هو ذا الحمار أمامك فعد شعره تجد صدق ما أقول •

فنكس الغبى رأسه دلالة التسليم وتراجع كصاحبه ينوء بالخسران المبين •

ثم تقدم الثالث وقال :

ـ أيها الشيخ العظيم ، سبحان الفتاح العليم ، لقد بهرنا علمك بالأرض ، وقهرنا علمك بالسماء ، فهل لك أن تخبرنى عن عدد شعر لحيتى ؟

قلت : ذلك يعلمه صبيان بلدتنا ، فان عدد شعر لحيتك عدد ما فى ذيل حمارى من شعر ، لا ينقص شعرة ، ولا يزيد شعرة ! ثم قلت : انزع شعرة من لحيتك وأخرى من ذيل الحمار ، فانك تجدهما متوافقين !

وانصرف عنى الحمار ولم يفهم ، وانتهت معركة الكلام بهزيمة الرهبان ثم جاءت معركة الطعام فكنت فيها فارس الميدان !

الكارثة الكبرى :

يعيش الانسان فى هذه الحياة معذبا بآماله وأمانيه ، وليس اشق على

النفس ، ولا أطعن للقلب من أن يصاب المرء بالخيبة فى أمله ، والضياع فى أمنيته ، وخاصة اذا ما كان على قيد شعرة من تحقيق ما يتمنى •

وهذا هو شأنى فى تلك الحادثة :

فقد مرت عدة أيام وأنا أشتهى أن يهيىء الحظ لى الأسباب الى عشاء من البرغل المفلفل ، وأن يمنح زوجتى شيئا من حسن الخلق فتصنع لى هذا الطعام على ما أشتهى ، وتضم اليه توابعه من البهار والتوابل ، وأن نجلس على الطعام معا وقت العشاء نمرح ونتسابق فى التهام الطعام ، وهبت على ريح الفرج بعد الشدة ، وهيأ الله لى من خير الحياة شيئا ، فدسست فى يد زوجتى من النقود ما يكفى صنع هذا الطعام وزيادة ، والملعونة لا يرضيها شيء مثل أن ترى النقود فى يديها ، فسرعان ما انفرجت أساريرها ، وبدا وجهها سمحا ومليحا ، وغادرت الدار لشأنى على أن أعود فأجدها قد أعدت الطعام على ما أشتهى •

وعدت فى المساء وبى من التعب والاعياء ما لا يطاق ، ولكنى أسرعت فنزعت ثيابى ، ووثبت الى المائدة حيث كانت الزوجة الحبيبة قد هيأت الطعام على أحسن ما يكون ، وجمعت على المائدة بجانبه كل ما يغرى بالطعام ويفتح « الشهية » الى الأكل ، ثم أسرعت فسللت ملعقة من الدرج كما يسل السيف من الغمد ثم حملت الملعقة بحمل ثقيل من البرغل وقذفت به فى حلقى فوجدته من أطيب ما يمكن وأشهى ما يكون !

ولكنى ما كدت أتناول الملعقة الثانية من الطعام حتى حدث ما ليس فى الحسبان ؟ فقد دخل علينا ابن جارتنا ــ وهو صبى يتيم ــ منكس الرأس ، منكسر الخاطر ، وقال : ان والدتى تريد أن تراك فى البيت •

قلت : هل أصابها ضر يا بنى ؟

قال : لا أدرى ، ولكنى أراها فى حزن وغم •

ونال منظر الصبى من نفسى وهو يتيم لم يترك له والده فى الحياة

معينا ، وأشفقت أن يكون قد نزل بهم سوء فى بيتهم ، فارتديت ملابسى ، وخرجت مع الصبى الى البيت .

والحق أنى وجدت نفسى أمام كارثة ... مشكلة ملأت نفسى هما وحزنا ، ولقد كانت زوجة جارنا رحمه الله على حق حين استنجدت بى ، فليس أصعب على نفس الانسان من أن ينزل به مكروه ثم لا يجـد له مواسيا حتى بالكلام !

وعدت الى بيتنا بعد أن واسيت المرأة بما يجب من العزاء ، ولـكنى فى الحقيقة لم أستطع أن أخفف عن نفسى وقع تلك الكارثة الأليمة حتى لقد ضاعت منى الرغبة فى الطعام .

ودعتنى زوجتى الى استئناف الأكل فقلت : ان الحزن لم يترك لى رغبة فى الطعام .

قالت : وهل نزل بجارتنا مكروه فادح الى هذا الحد ؟

قلت : كلا ، ولكنها كارثة علينا ومشكلة ستواجهنا فى المستقبل فلا ندرى كيف نتغلب عليها ؟

قالت : أى كارثة تكون هذه الكارثة ياشيخ ؟

قلت : لقد ولدت حمارة جارتنا جحشا صغيرا ليس له أذنان وبدون ذيل !

فضحكت الغبية الجاهلة ساخرة متعجبة ثم قالت : وماذا فى ذلك ؟

قلت : فيه الوبال والعار لنا ، فقد يبلغ هذا الجحش مبلغ الحمير ، ويصـير حمال أثقال ، فاذا قـدر له أن يقع مرة بحمله ، واستغاثت بى جارتنا لرفعه ، فماذا أصنع ؟ ومن أى شىء أشده الى فوق وليس له أذنان ولا ذيل ؟

مرق الأرنب :

حمل الى أحد الفلاحين أرنبا على سبيل الهدية ، وكنت والله أشتهى لحم الأرنب من زمن بعيد ، ففرحت به فرحا شديدا ، وأكرمت الرجل على هديته ، وبالغت فى اكرامه وقلت لنفسى : لعل ذلك مما يغريه على أن يقدم الينا هدية أخرى من الأرانب •

ومضى أسبوع وكان الأرنب قد صار فى خبر كان حتى نسيته ونسيت صاحبه الذى أهداه الينا ، واذا بى أجد فوق رأسى رجلا أذكر أنى رأيته من قبل ، ولكن لا أدرى أين كان ذلك ؟ ومتى كان ذلك ؟ فلما سألته عن نفسه قال : انه صاحب الأرنب فمهدت له فى جانبى ، وأفضت عليه من اكرامى وقلت : ان الرجل ما عاد الى زيارتنا الا أنه يفكر فى أن يحمل الينا عددا من الأرانب •

ومضى أسبوع ثان ، واذا بأربعة من الفلاحين يدخلون على الدار لم أعرفهم من قبل ولا رأيت أشكالهم قط ولا هى من الأشكال التى يطيب للانسان أن يراها ، فلما سألتهم عن شأنهم ، قالوا : انهم جيران صاحب الأرنب •

فقلت فى نفسى : انهم ولا شك قد سمعوا عن اكرامى للرجل فهم يريدون أن يعرفوا طريق بيتنا ليحملوا الينا هدايا من الأرانب فلا بأس من اكرامهم والتكفل بكل نفقاتهم •

ثم مر أسبوع ثالث واذا بثمانية من الفلاحين يقتحمون على باب الدار فنهضت من مكانى فزعا ، وقلت : من أنتم ؟ وما شأنكم ؟

قالوا : نحن جيران صاحب الأرنب •

قلت : لا بأس ، فى داركم حللتم ، وعلى أهلكم نزلتم ، ثم نهضت فأحضرت قصعة كبيرة وملأتها بالماء الساخن ثم حملتها حتى وضعتها بين

أيديهم وقلت : دونكم الطعـام أيهـا الاخوان فكلوا منه ما تشـاءون وما تشتهون !

فنظروا الى متعجبين وقالوا : ما هذا أيها الشيخ ؟

قلت : ألستم جيران جيران صاحب الأرنب ؟

قالوا : بلى !

قلت : وهذا مرق مرق الأرنب !

أهل الخير :

كنت مسافرا فى بعض شـــئون الحياة ، وكان النهار صيفا قائظا ، والحمار يمشى متكاسلا متبلدا ، وطال على الطريق ، وعضنى الجوع بنابه ولم أكن قد حملت معى زاد الطريق اعتمادا على أريحية أهل الفضل والكرم ، ولكن يظهر أننى كنت أجتاز بلادا لم يطرق الكرم بابها ، ولم يعرف سبيلا الى نفوس أهلها ، فكنت كلما مررت على جمع سلمت عليهم تسليم البشاشة ، ورفعت يدى بالتحية الى فوق العمامة ، فكانوا يردون التحية بأحسن منها ، ولكنى لم أجد واحدا منهم يدعونى الى اصابة حظ من طعام أو شراب •

وما كان لى أن أطلب الزاد بلسانى لأن هذا ليس مما يليق بمقامى، وهل يليق بأهل العلم والفضل والحجا من أمثالى أن يمشوا على قارعة الطريق متسولين مستطعمين ؟

ولكن الجوع كافر كما يقولون ، وما كان لى أن أصبر أكثر مما صبرت ، فقلت لا بأس من الاعتماد على البراعة ، وما أحذق من صناعة ، فما وصلت الى قرية فى الطريق حتى ترجلت عن حمارى ، وسويت من هيئتى وثيابى ، ثم ارتفعت على وهدة ووقفت أعظ ، فاستجاب الناس من كل صوب حتى احتشد الجمع وتكامل ، ثم أخذت أفيض عليهم مما ورد

عن الرسل الأقدمين فى البذل والايثار ، وصنع المعروف مع المحتاج وابن السبيل ، وختمت الوعظ بالحديث عن قصة نبى الله عيسى بن مريم وكيف رفع الى السماء حتى يقيم فى عليين ، وعنيت بالاشارة الى المائدة التى نزلت عليه وعلى قومه تلميحا الى المقصود ، وكان الناس حولى مأخوذين مذهولين تتساقط دموع الندم من عيونهم ، غير أنى ما كدت أختم عظتى حتى رأيتهم جميعا ينصرفون عنى ، وتلفت لعلى أجد كريما منهم يدعونى أو يواسينى فلم أجد الا شيخة محطمة عركها الدهر بنابه فما أبقى لها على ناب ، وقد أقبلت على وهى تبكى قائلة : قل لى يا سيدى الشيخ : لقد قلت ان نبى الله عيسى يقيم فى السماء الرابعة ، فقل لى كيف يأكل ويشرب ؟ وأين يجد قوته وغذاءه ؟ ومن هناك يعنى بتقديم ذلك اليه ؟

فقلت : أيتها المرأة الجاهلة ، كيف تسألينني عن ذات شريفة ونبى عظيم ، هو ضيف السماء الرابعة ، غارق فى أنواع النعم النورانية ؟

ألا تسألينني عن طعامى وشرابى ، وأنا واقف فى قلب بلدكم وتحت أبصاركم ، أكاد أموت فريسة الجوع ؟

بين القول والعمل :

ليس فى هذه الدنيا أرخص من المجاملة بالكلام ، والمواساة باللسان وانك لترى الرجل يمشى مع الرجل فى ثوب الصداقة ، وكل منهما يزجى الى صـــاحبه من كلمات المودة ما تنوء بحمله الجمال والبغال ، حتى اذا ما جد الجد ، وجاء وقت الامتحان بالعمل ظهر أن ما بينهما ليس الا كالذى كان بين صاحب الكلب والكلب !

كنت مسافرا ، وقد انتهيت فى الطريق الى شجرة فرعاء ، فآثرت أن أستريح فى ظلها بعض الوقت ، وما كدت أفعل حتى لمحت فى جوار جذعها شيخا يبكى بكاء حارا ، والى جانبه كلب ممدد على الأرض .

وأشفقت على الرجل ، فأقبلت عليـه فى لهفـة أستطلع شأنه لعلى



أستطيع أن أقوم له بشيء ، وما كدت أسأله عن حاله حتى أجابني بصوت متهدج تخنقه العبرات :

– كلبي ، كلبي ، انه صاحبي الوفي اذا ما غدر الأصحاب ! انني لا أطيق أن أراه في هذه الحال الشنيعة !

فقلت : وما بال كلبك يا سيدي ؟

قال : مسكين ! انه يجود بأنفاسه الأخيرة ، انه يموت !

قلت : أنزل به مكروه أو عقره ذئب ؟

قال : كلا ، ولكنه يموت من الجوع •

ولم يكن معى من الزاد شىء أقدمه للكلب مواساة للرجل ، وانقاذا لحياة هذا الحيوان البائس المسكين ، فأخذت أحوقل ، وأواسى الرجـل بما حضرنى من كلمات العزاء والمواساة !

ولكنى لم ألبث أن لمحت الى جانب الرجل جرابا منفوخا ، فسألته : وما الذى فى هذا الجراب يا أخى ؟

قال : أرغفة أحملها لزادى !

قلت : الويل لك ! أتحمل كل هذه الأرغفة ولا تقدم منها ما ينقذ حياة كلبك الوفى العزيز ؟

فحملق فى الحيوان الناطق ، وقال : حقا يا سيدى انه وفى عزيز ، ولكن الصلة الوثيقة بيننا لم تصل الى باب هذا الجراب !

الأمر الواقع :

هبنى أردت الخير ولكنى لم أقدر على فعله ، فهل أنا فى هذا ملوم ؟

انتى والله لأعيش على النية الطيبة دائما ، وليس الشح فى طبعى ، ولا من خلقى ، وبودى لو كان لى جميع المال الذى فى هذه الدنيا لأنفقه على جميع المحرومين ، والطعام الذى فى هذا العالم لأقدمه للجائعين ، ولكن ماذا أصـنع وأنا رجل من العـامة رقيق الحال ، اذا وجدت القوت يوما فربما لا أجده أياما ، وان لى بيتا قد تمر الأيام وليس فيه الا ظل الحيطان، فاذا لم أطعم الضيف لأنى لم أجد فأى شىء بالله على فى ذلك وكلنا فى هذه الأرض ضيوف الله ؟

كنت عائدا من المسجد ، ومعى بعض التلاميذ ، وقد ساروا فى رفقتى يسألوننى مسائل فى العلم وأجيبهم ، وما زلنا حتى وصلنا الى باب دارنا وكان الوقت ظهرا ، فدعوتهم لتناول الغذاء على المعتاد الجارى فى ذلك ، فأجابوا الدعوة مسرعين ، ولكنى دخلت الدار ، وأخبرت زوجتى بالأمر ،

فصرخت فى وجهى قائلة : هكذا أنت دائما تورطنا فيما لا نقدر عليه ! فكيف تدعو تلاميذك للغذاء ، وليس فى البيت ما يكفى غذاءك ؟

وفكرت فى الأمر ، وأخذت أحك رأسى لعلى أجد مخرجا من هذا المأزق ولكنى عجزت ، فقلت : انك دائما على حق أيتها المرأة فلا تؤاخذنى فيما صنعت ، ولا يزال التلاميذ بالباب ، فاصرفيهم بالحسنى ، فصاحت المرأة بهم من وراء الباب : انصرفوا فان الشيخ ليس هنا !

فأجاب أحدهم : لقد دخل الدار أمامنا !

وقال الثانى : انه دعانا للغذاء .

وقال الثالث : لقد أجبنا دعوة الشيخ تبركا بطعامه ، وصارت المرأة لا تتكلم كلمة الا أجابوها بعشرات الكلمات ، وأشفقت أن يؤدى طول اللجاج بينهم وبين المرأة الى ما لا تحمد عقباه . فوقفت فى النافذة وصحت بهم : أما تفهمون ؟ كأنى بالبلادة فى الدرس تأبى أن تفارقكم ، ان الشيخ قد دخل من هذا الباب ، ولكنه خرج من الباب الآخر للدار ، فهو ليس موجودا !

فقالوا جميعا : ولكننا لا نعرف أيها الشيخ أن للدار بابا آخر .

وضاق بى الأمر أمام هذه السماجة ، وأخذت أفكر فيما أصنع ، ثم نظرت فوجدت طبق الحساء على الرف ، فقلت : والله ليس أجدى من مواجهة الأمر الواقع ، فحملت الطبق وخرجت الى التلاميذ وقلت لهم : أنظروا هذا هو طبق الحساء فلو كان عندنا حساء لقدمناه اليكم ، أو ثريدا ما بخلنا به عليكم ، أو أى طعام آخر لأحضرناه لكم ، ففى هذه المرة قدمنا اليكم الطبق وفى المرة المقبلة نقدم اليكم الطعام ، اذا رزقنا الله الطعام !

من الجانى ؟

أصبح الصباح فوجدت باب الدار مخلوعا من مكانه ، ووجـــدت اللصوص قد سطوا على الدار فأخذوا ما فيها من متاع ، ويا لهم من حمقى أغبياء ! فقد أجهدوا أنفسهم فيما لا يستحق الجهد ، وما أحسبهم الا من حثالة اللصوص تعاظمهم أن يغيروا على رجل من أهل الغنى حيث المـال الكثير والمتاع الوافر ، واستخفوا السطو على رجـــل مثلى كثيرا ما يبيت الليل من غير عشاء !

وفى الحق أن الذى سرق ليس بشىء ذى بال ، وليست له قيـــمة كبيرة ، وعند غيرنا من الناس يعدونه من سقط المتاع ، ولكنه الشىء الذى كان فى دارنا ، والذى كنا نسميه متاعا من : ملحفة قديمة ، وفروة كبش متآكلة الأطراف ، وخنجر قديم ليس لنا حاجة به وجبة عندى غيرها ، وحلة من النحـــاس لها قيمة ، ولكنها ملك لجيراننا ، ولا أعتقد أنهـم سيطالبوننا بعوض عنها ، ثم بردعة الحمار وهى وحدها التى حزنت عليها وأسفت ! وعلى أية حال ففى الامكان أن أركب الحمار بدون بردعة !

وسمع أهل البلدة بالخبر ، فجاءوا شـيوخا وشبانا يشاهدون موقع الحادثة ، ويقفون على تفاصيلها ، وأقبلوا كلهم على يسألوننى عن هـــذا الذى جرى ، وكيف جرى ؟ ، كأنهم يحسبون أنى كنت مع اللصوص فى السرقة وانهالوا على تعنيفا وتقريعا :

واحـــد يقول : كيف يحـــدث كل هذا أيها الشيخ وأنت نائم لا تستيقظ ؟ هل كنت فى نوم أو فى موت ؟

وثان يقول : واذا كنت أنت لم تسمع ضربات اللصوص فى البـاب لأنك كنت مستغرقا فى النوم فكيف بزوجتك لم تسمع هى الاخرى ،ولم تشعر بوجودهم ؟



وثالث يقول : انك لا شك مقصر أيها الشيخ لأنك لم تصنع لباب الدار قفلا متينا كالذى أحضرته لباب دارى !

ورابع يقول : لو أنك اقتنيت كلبا شــهما ما استطاع اللصوص أن يقتربوا من الدار !

وهكذا أخذ كل واحد منهم يدخل من باب فى تقريعى وتعنيفى ، وأكثر من هذا فقد رأيتهم عاثوا فى الدار فسادا ، وأحدثوا من حــولى جلبة تصدع الرأس ، وتكرب النفس ، فقلت : يأهل بلدتنا ، حسبكم انكم قوم أهل انصاف حقا ، فقد أشبعتمونى تعنيفا وتقريعا ، وما رأيت واحدا فيكم ذكر اللصوص بكلمة سوء واحدة ، فهل أنا الجانى الأثيم وهم الأبرياء الشرفاء ؟



الناس هم الناس :

لم يدع لى قول الحق صديقا بين أهل بلدتنا ، وما زلت كلما عملت عملا ، أو قلت قولا ، قابلوا ما أعمل وما أقول بالاستهجان ، واتهمونى بالحمق والسخف ، حتى أصبحت حياتى بينهم جحيما لا يطاق .

وضقت ذرعا بهؤلاء الناس ، وهم كذلك ضاقوا بى ذرعا ، فقلت فى نفسى : وفيم الاقامة بهذه البلدة النكراء ، ولا ناقة لى فيها ولا جمل ، وبلاد الله كثيرة والانسان لا يعدم أن يجد فى الناس من يشاكله فى عقله ، ويوافقه فى رأيه ويبادله المودة والصفاء ؟

وأصبح الصباح ، وكنت صممت على الهجرة من البلدة فأخذت حمارى وابنى وهما كل ما لى ، وتركت زوجتى وقلت : انها فرصة للخلاص من تلك المرأة الجاهلة العنيدة ، ثم خرجت مهاجرا الى حيث يريد الله !

ومررنا فى الطريق على قرية ، وكنت فوق ظهر الحمار والولد يجرى من خلفى ، فرأيت جمعا من الناس قد جلسوا يتحدثون ويتسامرون ، فسلمت عليهم كشرط الاسلام ، ولكنهم بدلا من أن يردوا السلام ، أخذوا يتغامزون على ويتهامسون ، وسمعت منهم من يقول : ياله من شيخ غليظ القلب ! يتكوم فوق الحمار كأنه الداهية الدهياء ، ويترك الصبى يجرى وراءه فى غير رحمة ولا شفقة !

فلما جاوزنا القرية قلت : يا بنى ، الدور دورك ثم أركبته الحمار وسرت وراءه ، وما زلنا حتى مررنا على أهل قرية ثانية ، فرفعت يدى بالسلام عليهم ، ولكنهم بدلا من أن يردوا السلام سمعتهم يقولون : يالله من شيخ فاقد المروءة ! يحمل الصبى على الحمار ويمشى هو كأنه ليس بذى مقام !

وما تجاوزنا هؤلاء الناس بقليل حتى نهضت فركبت الحمار وأردفته

الولد من ورائى وسرنا حتى مررنا بجمع من الناس يجلسون على باب بلدتهم ، فسلمت عليهم ولكنهم أشاحوا بوجودهم عني وسمعتهم يقولون : ياله من شيخ غليظ ! يتكوم هو وابنه على ظهر الحمار ، ولا يرحم هذا الحيوان المسكين !

وضاق صدرى بما سمعت ، فما تجاوزنا القوم حتى نزلت وأنزلت الولد عن الحمار وتركناه يسعى أمامنا ، ونحن من ورائه نسير ، حتى اذا نزلنا على قرية فى الطريق سمعت أهلها يقولون : ياله من رجل قليل العقل عديم الادراك ! أهكذا يمشى هو وابنه والحمار يتطوح أمامهما فى الطريق ؟

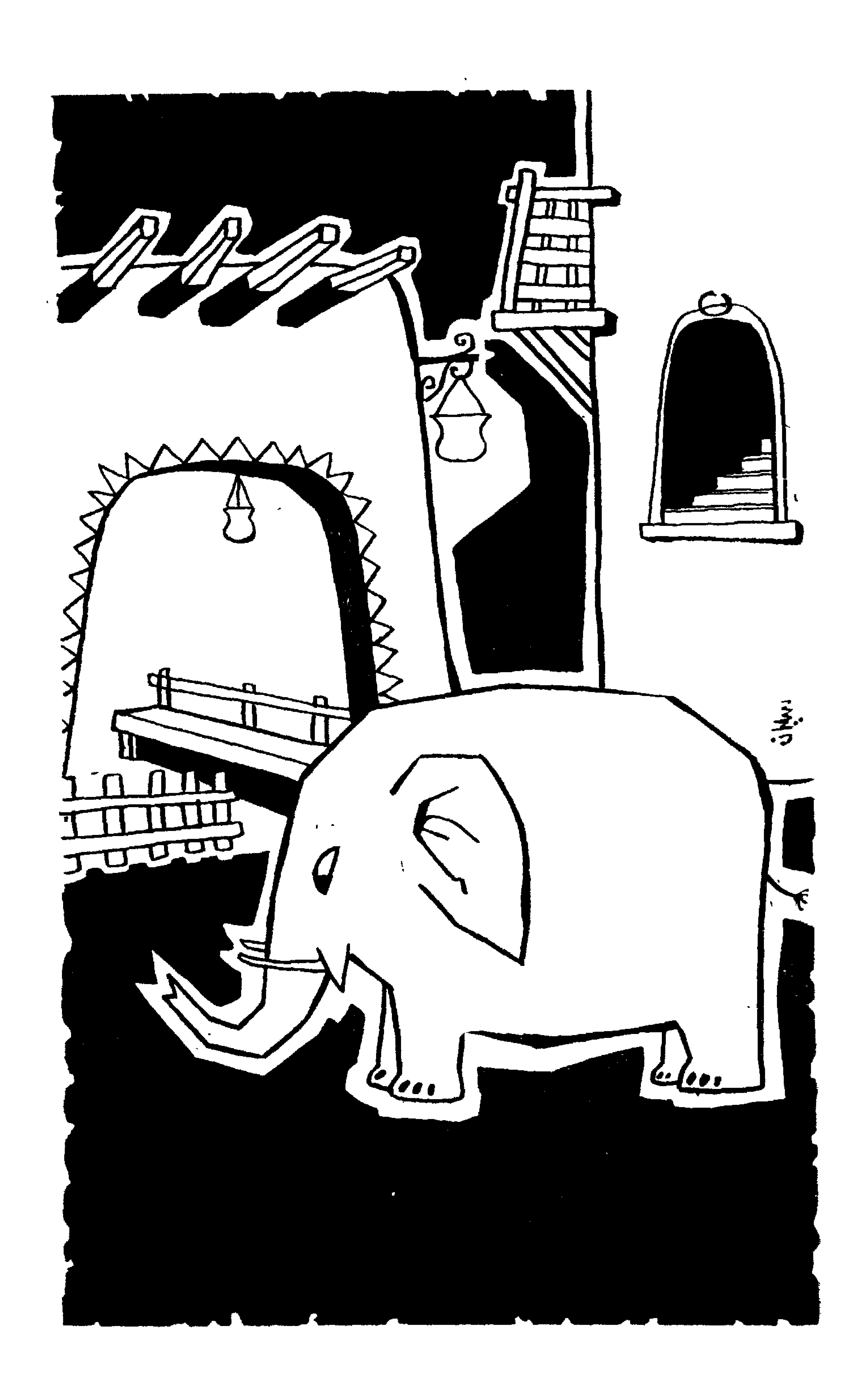
فقلت لابنى : اسمع يابنى ، لقد سرنا مع الناس على كل حال فما أعجبناهم فى أية حال ، فلنرجع الى بلدتنا ، فان الناس هم الناس !

الفصل الثالث

جحا والسلطان!

انها معركة أزلية تلك المعركة التى تقوم منذ آماد السـنين بين القوة المتسلطة ، والحق الأعزل ، وفى ميدان هذه المعركة يلتقى الطاغية تيمور لنك بجبروته وسنانه ، والشـيخ جحا وليس له الا حكمته ولسانه .

ولكن ماذا يصنع اللسـان مع السنان ؟ ان جحا لا يسعه فى هذا الا أن يكشف لك عن حقيقة الأمر الواقع ، وعليك أن تنظر ، والواقع هو هو فى كل زمان ومكان .



فيل السلطان :

بعد أن أتم السلطان تيمورلنك فتح الممالك أو على الأصح بعـد أن خرب البـلاد وأفنى العباد جلس فى قصره جلسـة الظافر وأمر بتسريح الفيلة التى كانت تتقدم جيشه فى أرجاء المملكة فتمشى على هواها وتأكل ما تشتهى من خيرات الأرض ، ونزل على بلدتنا فيل ضـخم من هـذه الفيلة وكأنه استطاب المرعى فطابت له الاقامة وأخذ يعبث فى المزارع حتى أتلفها وما أبقى للناس بقية من رزق .

وتجمع وجوه البلدة للتشاور فى دفع هذا الوبال الذى نزل بهم وسألونى أن أذهب للسلطان شفيعا لعله يعطف ويتعطف ، فيأمر بنقـل الفيل من البلدة ، فقلت لهم : وهل تحسبون أن جحا يملك حجة أمام سيف ذلك العقل الجبار الذى تسمونه بالسلطان ؟

ولكنهم ألحوا فى الرجاء وقالوا : انك لا تعدم حيلة لكسب رضاه وتخليصنا من ذلك الفيل الذى فتك بأرزاقنا والا فان أهل البلدة سيهلكون جوعا لا محالة ، وحاولت أن أفهمهم أن الحيلة لا تجـدى أمام بطش السلطان وغضبه ولكنهم ألحوا فى رجائهم فقلت : اذا كان لابد من هذا فلنذهب خمسة فنقف بين يدى السلطان صفا واحدا ويقول كل منا كلمة واحدة فى الرجاء الذى نتقدم به :

فيقول الأول : فيلكم يا مولانا السلطان .

ويتلوه الثانى : نزل ببلدتنا منذ أمد طويل .

ويرد الثالث : وقد أفسد مزارعنا وأتلف أرزاقنا .

ويقول الرابع : ونرجو أن ترحمنا فتأمر بنقله من بلدنا .

ثم يدعو الخامس : أن يمد الله فى عمر مولانا السلطان وأن يديم عزه ونصره فنرد جميعا مؤمنين على الدعاء !

وسألنى القوم عن الحكمة فى ذلك ، قلت لهم : انني أعرف أن سلطانكم أحمق شرس الأخلاق وليس هناك ما يرضى أولئك الملوك والسلاطين الجبارين مثل التذلل والتضرع واظهار الخضوع ، فاذا ما وقفنا بين يديه جميعا ورآنا من وجوه القوم فى رعيته دب فى نفسه دبيب الرحمة والعطف علينا ، ثم هو لا يستطيع أن يحاسب واحدا منا لأننا جميعا سنشترك فى رفع المظلمة اليه وبهذا ننجو من غضبه وبطشه !

واستحسن القوم الفكرة ومدحونى بحصافة الرأى ورجاحة العقل، وقصدنا من فورنا ، فمثلنا بين يدى السلطان ، وبعد أن أبدينا مظاهر الخضوع والخشوع تكلم الأول فقال :

ــ فيلكم يا مولانا السلطان .

قال السلطان : ما باله ؟

فرد الثانى قائلا : لقد نزل ببلدتنا منذ أمد طويل .

فقال السلطان : وما فى ذاك ؟

وجاء دورى فى الكلام ونظرت الى السلطان ، فرأيت عينيه تقدحان بالشرر ووجهه يتميز من الغيظ ، فأسرعت قائلا :

ــ أجل يا مولانا ، ان فيلكم قد طال عليه الأمد فى بلدتنا وقدشرفنا بذلك وهو على الرحب والسعة فى ضيافتنا ، ولكنه قد اشتاق الى فيلة تؤانسه ، فنلتمس أمركم بارسال فيلة اليه .

وهدأت ثائرة السلطان ورمقنى بنظرة من الرضا السامى والعطف الكريم ، ثم أمر بارسال فيلة الى الفيل وبمنحى جبة وقاووقا دلالةالتقدير والتكريم !

وخرجت فأقبل على أصحابى يلومونني ويقولون :

ـ لقد كنا فى مصيبة فجئتنا باثنتين !

قلت : يا قوم ، هذا شأنكم ، أما شأنى فأنا أدرى به ومن يستطيع أيها الحمقى أن يقول للسلطان فيلكم ؟ وهل كان من الخير لى أن أتملق السلطان وأحظى بهذه الكسوة العظيمة أو أن أقول الحق ويعلق رأسى على سور المدينة ؟

أصحاب السلطان :

اذا قدر الله عليك أن تكون من أصـحاب السلطان فاحرص على أن تكون لك عين لا ترى ، وأذن لا تسمع ، وعقل لا يفهم ، ووجـــدان لا يحس ، وضمير لا يحكم ! وعليك دائما أن تكون فى مرضاة هـــذا السلطان بالحق وبالباطل : فاذا رأيته راكبا كلبا فقل له : ما أجمل هـذا الأسد ! واذا سمعته يقول سخفا فقل له : ما أروع هذه الآيات المحكمات! واذا وجدته يرتكب الطيش والهوس فقل : انه العدل الذى يزن الأمور بالقسطاس ! واذا تبينت فيه الخور والجبن فقل : مرحى مرحى يا أشجع الشجعان وما شاء الله كان !

واعلم أن شجرة النفاق انما زرعت أول ما زرعت فى ساحة الملوك والسلاطين ، وفى هذه الساحة نمت وازدهرت وأثمرت ، ليس أصحاب السلطان وأهل بطانته الا فروع تلك الشجرة ، وانما ينال الواحد منهم من الحظوة والرضا على قدر ما يبذل من النفاق لسيده ويقدم من الملق فى مرضاته •

هذه حقيقة أعرفها وأفهمها ، ولكن مصيبتى أنى كثيرا ما أنسى !

فقدكنا فى يوم فى حضرة الطاغية تيمورلنك ، وكان الطاغية يجلس على عرشه أشبه بالعتل الزنيم أو كأنه برميل أو زنبيل ! وأهل بطانتــه يجلسون من حوله ، وأبصارهم اليه شاخصة ، وآذانهم نحوه مرهفة ،

وألسنتهم تدور بتسابيح الحمد لذاته ، والثناء على خصاله وفي مجرى الحديث سأل واحد من البطانة زميلا له :

ـ هل لك أن تفيدنا عن مذهبك ؟

فانتفض الرجل من مكانه ، وتوجه نحو السلطان في ذلة وخضوع وانحناء ، ووضع يده اليسرى على صدره ، ورفع اصبعه مشيرا الى السلطان قائلا :

ـ السلطان تيمورلنك مذهبي ومعتقدي !

فأومأ اليه العقل الطاغية بالرضا ، وهمهم المنافقون من حوله بالاستحسان والتفت الى أحدهم وقال : أما لك أيها الشيخ أن تسأله عن نبيه ؟ .

وكنت قد نسيت أني في حضرة السلطان ، وأني في القوم المنافقين فصحت :

ـ مهلا يا أخي ، فاني أعرف أن الرجل الذي يكون مذهبه ومعتقده الطاغية تيمورلنك ، لا شك أن نبيه السفاح جنكيزخان !

العاقبة الأليمة :

عرض على تيمورلنك أن يجعلني حاكما لبلاد (قونية) ولكني آثرت السلامة فرفضت ، ولقد لامني كثير من الناس على هذا الرفض ، وسخطت على زوجتي أشد السخط ، وقالت : يا لك من تعس نكد ! تأبى الا أن تعيش في البؤس والشقاء الى الأبد !

وما كان لوم النفس ليخدعني عن عقلي ، وما كان لي أن أسمع كلام تلك المرأة المجنونة ، لأني أعرف العاقبة تماما مع الطاغية ، وأعرف أن النهاية القريبة لن تكون الا « حش رقبتي » لا رقبة أحد غيري !



والعاقبة فى ذلك رأيتها بعينى : فقد كنت فى مجلس الطاغيـــة نيمورلنك ولم يكن أحد معنا ، وكان يبدو على الرجل الهدوء والايناس، وقليلا ما يكون كذلك ، ثم دخل رئيس خدمه ، وأنهى اليـــه أن حاكم قونية قد اختلس أموالا طائلة من جباية الضرائب ، والحجة على ذلك أنه لم يستطع أن يقدم من التحصيل مثل ما قدمه فى العام الماضى •

وما كاد الطاغية يسمع هذا الكلام حتى انتكست خلقته ، وتغيرت حالته ، وتطاير شرر الغضب والحقد من عينيه ، ثم صـــاح فى غلظة : أحضروه ليلقى جزاءه !

ودخل الرجل خاشعا ضارعا ، وجسـمه يرتجف من الرأس الى القدم ثم تكلم بصوت خفيض متهدج قائلا : العفو يا مولانا السلطان،فانى ما قصرت ولا اختلست ، ولكنها الجوائح السماوية قد اجتاحت الزرع والثمار هذا العام ، فما أخرجت الارض للناس ما يقتاتون به ، وقد بذلت كل جهدى وكل ما لدى من شدة حتى جمعت كل ما فى أيدى الناس من مدخر ، وهذه وثائقى وأوراقى مكتوبة ومختومة ، وهى تشهدبصدق ما أقول ، وبأنى أشد ما أكون حرصا على أموال مولانا السلطان .

ولكن الظالم رجـل ليس له قلب يرحم ، وليس له عقل ، حتى يفهم والا فمـا كان ظالما ، ولذلك هاج هائج الشر والطغيـان فى نفس الطاغية فصاح : أتزعم أن جوائح السماء تنزل على الارض فى عهـدنا ، الويل لك ثم الويل ! ثم أمر بضربه ضربا شديدا ، وأن يستمر الضرب حتى يأكل ما معه من الوثائق والأوراق فما زال الجند بالرجل ضربا وهو يأكل تلك الأوراق الخشنة الغليظة حتى حملوه وليس فيه بقية يصلح معها للحياة !

رأيت كل هذا بعينى رأسى ، ثم رأيت الطاغية يلتفت الى فى صلف قائلا : لا بأس من أن نوليك مكانه أيها الشيخ حاكما على تلك البلاد .

فقلت فى نفسى : لا شك أن الحكم جاه ووجاهة ، ولكن يا لها من عاقبة أليمة تلك التى رأيتها رأى العين !

وخشيت أن يعجل الطاغيـة بتنفيـذ الأمر ، فنهضت من مكانى ، وأحضرت قطعا من قمر الدين ثم سويتها على هيئة أوراق ، وتقدمت بها الى السلطان قائلا : هل يتفضل مولانا الحاكم العادل فيأمر لنا بختم هذه الاوراق ؟

فقال : ما هذا أيها الشيخ الأحمق ، هل هذه أوراق ؟

قلت : يا مولانا السلطان ، ان السعيد من وعظ بغيره ، وقد رأيت

بعينى ما جعلنى أحمد الله على أنى لم أكن يوما حاكما ولا قريبا لحاكم، وخشيت أن تصر على رأيك فأحضرت هـــذه الاوراق لأن أكلها يكون أسهل وأسرع يوم الحساب !

الأمر والتنفيذ :

هناك مسافة بين أصحاب الأمر ومن يقع عليهم الأمر ، وهى مسافة تتسع أو تضيق على قدر ما يكون من قوة القوى ، وضعف الضعيف •

وأنا أعرف تماما أن منطق القوى قد يقويه وأن القوة منذكانت تنزع فى منزع الظلم والطغيان وترمى بسهام الطيش والبطش والبهتان ، وفى هذا يضل عقل الحكيم ، ويضيع لب اللبيب ، ويا لطول ما لقيت أنا نفسى فى هذا السبيل !

فقد كنت يوما ما جالسا فى حضرة الطاغيـــة تيمورلنك ، فدخلوا عليه بفارس من جنده متهما بمخالفة أوامر السلطان العظيم •

ولم يتكلم الرجل بحجة ، ولم يكن هنـــاك متسع لأن يكشف عن حقيقة عمله أو أن يتشفع للسلطان فى غلطه ، فقد صـاح الطـاغية بأعلى صوته : خذوه فاجلدوه ثمانين جلدة ، ولا تأخذكم به رأفة •

وتمثلت المسكين أمامى بعد ثمانين جلدة تهوى عليه فلا تبقى له لحما على عظم ، فنهضت من مكانى فزعا ورعبا لهذه الحـال الأليمة ، فرمقنى الطاغية بنظرة تقدح بالشرر ثم قال :

أتستقل هذا المقدار وتستخفه ، بل زيدوه الى ثمانمائة جلدة !

وطار صوابى وتلجلج لسانى ، فلم أدر ماذا يمكن أن أقول ؟ وعاد الطاغية يرمقنى بنظره الحاد وقال : أما زلت تستقلها أيضا ؟ بل زيدوه الى ثمانية آلاف جلدة •

ولم أحتمل ما سمعت وتفككت مفاصلى ، وتخاذلت قواى فسقطت

اعياء وهلعا ، فحدد الى الطاغية نظرة وأخذ يهز رأسه في عنجهية وهو يقول :

اذن ماذا تريد ؟ انك تعلم أني صاحب الطول والحول ، وأني قادر على ما أريد •

قلت : لا أريد شيئا من حـــولك وطولك ، فقد بلغ عـدلك غاية السماحة والكرم ، ولكن قل : يا صاحب القلب الرحيم ، كيف يحتمل جسم انسان من دم ولحم ثمانية آلاف جلدة بل ثمانين ؟

الرعب يأتي بالعجائب :

كادت زوجتي بجشعها وطمعها أن توردني مورد الهلاك وأن تلقى بي فريسة شهية بين براثن ذلك الطاغية الغاشم تيمورلنك ولولا لطف الله لكنت اليوم بحيث لا يعرف مصيري انسان •

فقد قالت لي الملعونة : ما هذا يا جحا ؟ تكون صـاحب قربي من تيمورلنك ولك الحظوة في مجلسه ، وانك لتقضي حوائج الناس عنده ثم هو يستظرفك ويستلطفك ومع هذا لا تسأله أن يهب لنا شيئا لينفعنـا في حياتنا ويسعدنا في معاشنا •

والحق أني كنت أفكر كثيرا في هذا الذي قالته زوجتي ، ولكنني كنت أعرف أن هذا الرجل يحب أن يأخـــذ ولا يعطي ، وأنه يكنز في خزائنه الألوف المؤلفة ، ولكن يسره جدا أن يحصل على الدانق من فقير مثلي ؟ وما أحسبه قد أعطى انسانا عطية أو وهب هدية لأحد من قبلي ، ولو أنه رأى مني نظرة طمع في ماله لأقصاني وجعل السجن قراري !

غير أن الحاح زوجتي جعلني أنسى تقديري هذا كله ورأيت أن تكون المسألة على سبيل التجربة ولعل الله يهيىء لنا فضلا من ورائها فقلت لزوجتي : انني أفكر فيما تفكرين فيه ولكن أليس من الحكمة أن أقدم الى السلطان هدية أدخل بها السرور على نفسه ثم أطلب منه ما أريد ؟

واتفقنا على ذلك وكانت عندنا اوزة جميلة ، عزيزة سمينة ، ندخرها ليوم معلوم ، فطلبت من زوجتى أن تذبحها وتطبخها وتحشوها بكل لذيذ من اللوز والجوز والصنوبر والتوابل ثم تحمرها فى صينية فأحملها اليه هدية شهية ، وأمضت زوجتى ليلة بطولها ساهرة حتى صنعت الاوزة على أشهى ما يكون ثم حملتها فى الصباح قاصدا السلطان •

وبينما أنا فى الطريق أخذت الروائح الزكية تملأ خياشيمى وتحركت فى شهوة غلابة الى الطعام ، وأخذت أرفع الغطاء عن الاوزة مترددا بين الاحجام والاقدام وأخيرا قلت لا بأس من أن أعالج الأمر برفق ، فنزعت رجل الاوزة والتهمتها ثم واريت مكانها بحيث لا تظهر ، ومضيت فى طريقى حتى وضعت الهدية بين يدى السلطان ، فسر بها سرورا عظيما ، وأقبل على فى بشر وطلاقة حتى حسبت أنه سينزل لى عن نصف ملكه •

على أن الوحش الكاسر سرعان ما كشف الأمر فشخط فى قائلا : ما هذا ؟ أهدية ناقصة واوزة برجل واحدة ، أو هو الطيش دفعك للاستخفاف بى ؟

وأسرعت لانقاذ نفسى من الورطة فنهضت وقبلت الأرض بين يديه ثم قلت : يحفظ الله مولانا السلطان ، ان هذا هو شأن اوزتنا ، فقد كانت رحمها الله برجل واحدة والله قادر على أن يخلق آدمين برجل واحدة

وحسب الطاغية أنى أعرض به ، فقد كان به عرج ويظلع برجل واحدة ، فاستشاط غضبا ، ورأيت الشر فى عينيه ، وأدركت أنها النهاية الأليمة ، ولكنى عولت على الحيلة فقلت :

ـ أنظر يا مولانا الى البركة التى أمام القصر، فانك ترى الأوز الذى فيها يقف جميعه على رجل واحدة وأنا أعرف أن تلك عادة أصيلة فى الاوز •

ونظر تيمورلنك فرأى الأمر كما قلت ، فهدأ غضبه وكادت المسألة

تمر بسلام لولا أن الجند يقرعون طبولهم ففزع الأوز الذى فى البركة ، وانطلقت كل اوزة تمشى على رجلين ، فلما رأى تيمورلنك ذلك عاد الى تجهمه قائلا :

ـ أتكذب على أيها الشيخ وهـذا هو الأوز يمشى على رجلين ؟
قلت :

ـ حاشا لله يا مولانا السلطان ، ولكنه الرعب يخلق العجائب ولو أصابك ما أصاب الأوز لجريت على أربع !

منزلة الأكابر :

كانوا فى مجلس تيمورلنك يتحدثون عن البلاد التى فتحها والجيوش التى أبادها والخلائق التى أفناها ، ويقدرون ذلك بالألوف التى لا تحصى عددا وهو بذلك مزهو فخور وفرح مسرور •

وسأل أحـد الحاضرين قائلا : كم من الزمن سيمر حتى يعوض العالم من المولودين مقدار ما فنى من تلك الألوف ؟

وكأن ذكرى المولودين قد أساء الى تيمورلنك الذى لا يسره الا أن يسمع أخبار الموت والقتل والفتك والذى لا يرضيه الا أن يعيش هـذا العالم خرابا بلقعا فنظر الى الغاشم الجبار وسألنى فى حدة :

ـ الى متى يلد الناس ويموتون يا جحا ؟

فقلت : حتى تمتلىء الجنة والنار يا مولانا السلطان !

فقال فى لهجة أشد : وأين ترانى يوم القيامة بين أهل الجنـة أو النار ؟

قلت : انك يا مولاى لا شك فى صدر أهل النار !

فتجهم وجهه ، وبدا عليه الغيظ وهز سيفه بيده كأنه يريد أن يفتك بى ثم قال :

ـ هل أنا أكون فى صدر أهل النار ؟

قلت : يبدو لى يا مولانا أن تلك مَنزلة الأكابر ، فقد جاء فىالقرآن الكريم أن فرعون وهامان وكل ملك جبار مخلد فى النار وأنت لا شك على رأس هؤلاء !

فانفرجت أساريره وظهر عليه الرضا والسرور ، وتلك طبيعة كل عتل جبار لا يرضيه ولا يسعده الا أن يكون على رأس الجبارين ولو فى النار !

الفصل الرابع

جحا والقضاء

تقول الحكمة القديمة : نصف الناس أعداء لمن ولى الأحكام اذا عدل ، والا فالناس كلهم له عدو مبين ٠

والحق أن الناس قد يجمعون على شأن من الشئون ، ولكنهم لا يمكن ابدا ان يجمعوا على رأى واحد بالنسبة للقاضى ، لأن الناس فى ساحة القضاء اما محكوم له فهو يشـــهد للقاضى بالعدل واما محكوم عليــه فالقاضى عنده عنوان الظلم ، ولهذا كان القضاة هدفا لسهام النقد اللاذع من ســائر الطبقات وخاصة فى العهود التى كان يعيش فيها القضاة على هوى الحكام ؟

قد تولى جحا القضاء ، أو هكـــذا شاء الناس فى تصورهم ان يجلسوه فى مجلس القضـــاء ، ليتخـذوا منه وســيلة يعلنون بها رأيهم فى أولئك القضـــاة الذين عاشـــوا على هوى الحكام !

اذا رضيت زوجتى :



صدر أمر السلطان بتوليتى القضاء تقديرا لما رآه من اخلاصى وما علمه من ذكائى ، وقد أسرعت الى الأخذ بتقاليد هـــذا المنصب الجليـــل الوقور ، فارتديت جبتى الفضفاضة ومشطت ذقنى وســـويتها ، ورفعت القاووق فوق رأسى ذراعين أو أكثر ، ثم امتطيت صهوة حمارى العزيز ، وخرجت فى جمع من الأتباع والأشياع حتى انتهيت الى باب الســـلطان فرفعت فروض الشـــكر الى مواطىء أقدام حضرته المفخمة الفخيمة ، وأظهرت اخلاصى واعترافى بذلك العطف السابغ الذى تدلى من أريكة

المجد ، فاختارني لهذا المنصب الجليل ، وقد أخبرني أحد رجال الحاشية أنه رفع الى مولانا السلطان فروض شكري وولائي ، فأومأ بطرفه ايماءة الرضا ، والحق أن هذا ليس على مثلي بقليل ، بل انه لأكثر من الكثير ، ولهذا عدت وجبتي الفضفاضة تضيق بي من الزهو والغرور !

ولقد نصحني أصدقائي العقلاء ، أو الذين يحسبهم النـــاس عقلاء وأشفقوا علي من هذا المنصب ، وحذروني قائلين : ان رضا النـاس غاية لا تدرك ، وقالوا : ان نصف الناس أعداء لمن ولي الاحكام اذا عدل ، والا فكلهم له عدو مبين ، وذكروني بما جاء في الأثر : قاض في الجنـــة ، وقاضيان في النار ، ولكن زوجتي فرحت فرحا كبيرا بتوليتي هذا المنصب وسرها أن يصبح زوجها من رجال الدولة ، وأهل الاشـــارة والشارة ، فراحت تملأ الحي بالزغاريد !

وهل حسبتم أيها الأصدقاء العقلاء ، أو الأغبيـــاء أني قادر على أن أغضب زوجتي لأرضيكم ، وأن عداوة الناس كلهم تعنيني أو تهمني في شيء ما دمت متمتعا برضا حضرة مولانا السلطان ؟

ثور السلطان :

حضر الي في أول يوم من جلوسي للقضاء ، رجل غر أحمق في دعوى عجيبة لا يصدقها العقل ، أو قل : لا يصح أن يصدقها العقل ! فقد زعم ذلك الرجل أن ثور السلطان الاحمر قد نطح بقرته البيضاء ، فشق بطنها ، وأخرج أمعاءها ، فماتت لســـاعتها وطلب مني أن أحكم له على السلطان حتى يعوضه عنها بقرة أخرى من عنـــده ، وبقرات السلطان كثيرات لا يحصيها العد ، ولن يضيره أن ينقص من عنده بقرة،أما الرجل فبقرته الوحيدة وهي قوام حياته ومصدر رزقه ورزق عياله !

ولقد زجرت هذا الرجل الأحمق وقلت له : انك في دعواك غر مأفون لا تدري وجه الحق فيما تقول ، فان الشرع قد أهدر دم الحيوان، واذن فلا حق لك على السلطان ولا على ثور السلطان !

ولكن الأحمق لم يفهم ما أعنى ، فاضطررت الى معالجة المسألة من وجه آخر حتى يفهم فقلت له :

ــ أين اعتدى ثور السلطان على بقرتك ؟

قال : عندما كانت فى الحقل .

قلت : اذن لو لم تكن فى الحقل ما اعتدى عليها الثور ، فوجودها هو السبب والأصـــل ، وأنت المسئول عن ذلك ، ولابد من أن تؤخذ بهذه الجريمة ، فتدفع عوضا للسلطان عما تسببت فيه لثوره من مشقة وعناء ! ويظهر أن الأحمق قد بدأ يفهم ما أعنى فسرعان ما قال :

ــ ولكنى قد نسيت يا جحا فقصصت عليك القصة معكوسة مقلوبة !

قلت : اذن ما القصة ؟

قال : ان بقرتى لا رحمها الله هى التى تطاولت ، فنظرت بعين الطمع الى ثور السلطان فتفضل عليها بالملاطفة والمداعبة ، فكان أن شق بطنهـــا وخرجت أمعاؤها ، وقتلت لساعتها ، وهى الجانية على نفسها ، وانى لمأخوذ بهذا الذنب العظيم ، وقد جئت اليك وأنت قاضى الشريعة والمسلمين ، لترفع عنى الاعتذار الى ثور السلطان العظيم !

قلت : الآن بدأت تفهم أيها الأحمق المأفون ، فانصرف ولا تعد الى مثلها أبدا فتؤخذ بجريرة المذنبين طبعا لأنى أعرف أن سيف السلطان أقطع من حجة الرجل وأنصع !

فيها قولان :

كانت قضية اليوم خاصة بى :

فقد حضر الى جارنا وادعى أن كلبا بال على الحائط الذى بينى وبينه وسألنى عن حكم الشرع فى طهارته من هذه النجاسة المغلظة !

فقلت : ليس من الممكن غسله بالماء سبع مرات ، واذن فلابد من أن تهدم الحائط وتقيم بناءه من جديد حتى يكون طاهر الأساس والبنيان .

ولكن جارنا زعم أن كلبي هو الذي بال على الحائط ، فقلت : اذن كيف يمكن هدم الحائط وبناؤه ، وهذا تكليف كبير والدين يسر لا عسر، وحكم الشرع في المسألة واضح،فاذهب ورش الحائط بقليل من الماءالطاهر فان هذا مما يكفي !

وكانت زوجتي تجلس بحيث تسمع ما يجري بيني وبين الرجل ، فلما انصرف أظهرت العجب ، وقالت : كيف تحكم يا جحا هذا الحكم المتناقض ؟

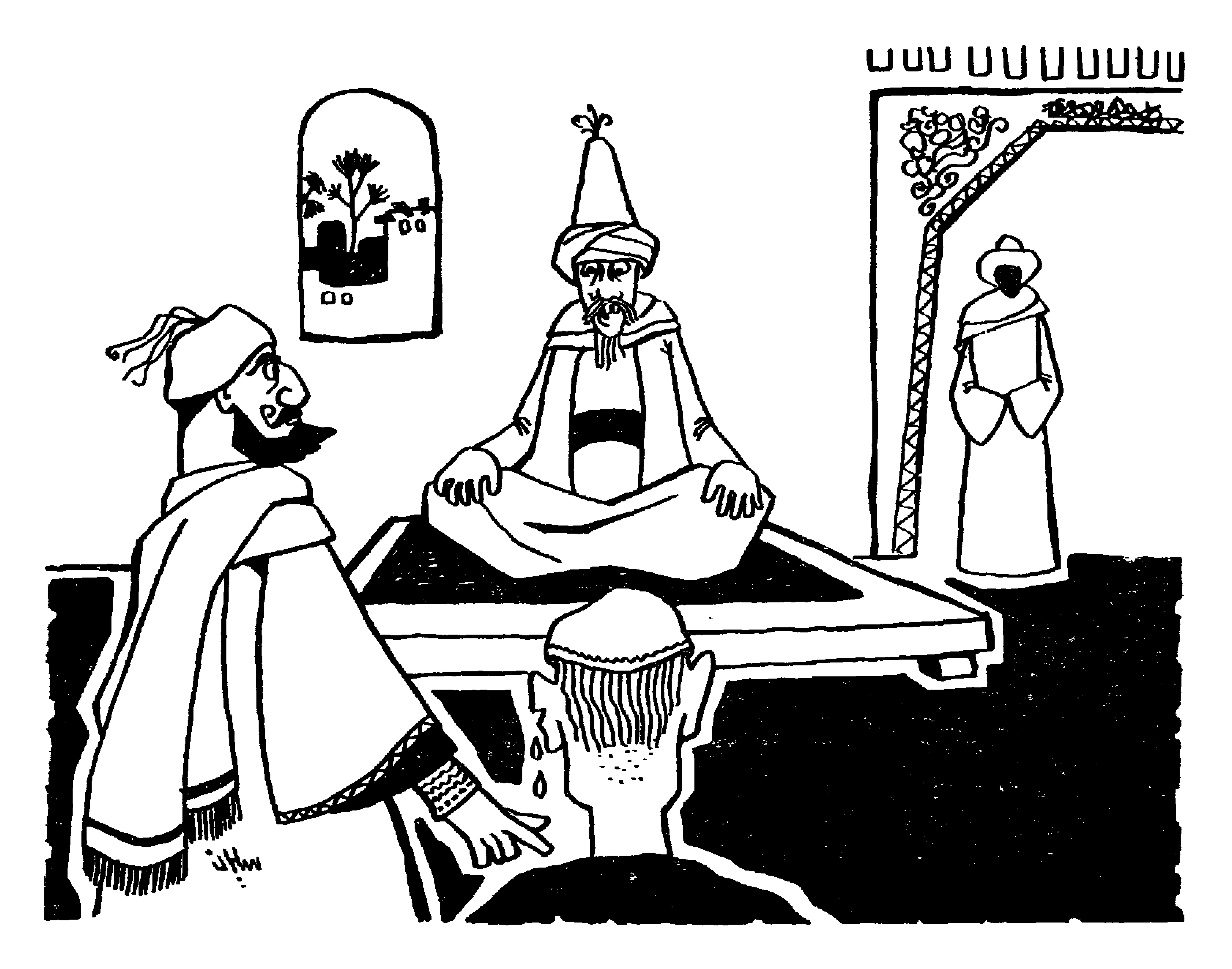
وماذا يقول الناس اذا عرفوا ذلك عنك ؟ وأنا بدوري قد عجبت من زوجتي الغبية التي لا تفهم ، فان حكمي لم يكن متناقضا قط ، ولو كان عند تلك المرأة قليل من الذكاء والفهم لعلمت أن السلطان انما ولاني القضاء لأحكم على الناس وأقتص منهم لا لأحكم على نفسي !

في سبيل العدالة :

كل شيء يهون في سبيل العدالة واقامة الحق بين الناس ولو أدى ذلك الى عض الأذن وشج الرأس وما لا يصح للمرء ذكره .

تقدم الى رجل من عامة الناس لا أعرف له مكانة وليس عليه من الوجاهة ما يحمل على احترامه أو تقديره أو توقيره ، وكان الرجل يشكو الى كثيرا من أحد كبراء البلد ويزعم أنه ضربه وركله ، ثم هجم عليه فعض أذنه عضة قاسية أليمة ، ويطلب مني أن أقتص له منه بحق الشرع وحق العدالة .

وتحسست بيدي أذن الرجل فوجدتها تقطر بالدم ، وقد تركت العضة فيها آثارا واضحة ربما خلفت وراءها عاهة مستديمة تضر بسمع الرجل .



وأحضرت الرجل الكبير وتوجهت اليه فى توقير واحترام ، وسألته عن حقيقة دعوى الرجل عليه فى لطف وتبجيل بمكانته قائلا :

ـ هل تفضلت حضرتكم ونزلت فعضضت أذن الرجل ؟

فرد فى برود وعدم مبالاة قائلا : كلا بل هو الذى عض أذن نفسه •

وصاح صاحب الدعوى : يا قاضى المسلمين ، أنصفنى ، وهل هذا مما يدخل فى عقل ؟ وهل فى امكان أى انسان أن يعض أذن نفسه ؟

وتدبرت الأمر فوجدتنى أمام قضية معضلة مشكلة وان كان وجـه الحق فيها ظاهرا واضحا • صحيح ليس من المعقول أبدا ولا فى استطاعة أى انسان أن يطول أذنه بأسنانه فيعضها حتى لو كانت فى طول أذن الحمار!

ولكن كيف يصح أن أصدق رجلا صعلوكا فقيرا لا مكانة له ولا وجاهة تبدو عليه ولا مال عنده وقديما قيل : من لا مال له لا عقل له ، ثم أكذب رجلا من سراة القوم فضله الله بنعمة المال على كثير من خلقه،وبيتنا قريب من بيته ، وقد قالت الحكماء : يجب أن تراعى لأهل الأقدار أقدارهم ،وأن تحفظ لأهل المنازل منازلهم ومن تعرف خير مما لا تعرف ؟

وبدا لى أن أقول لصاحب الدعوى : ان الذى عضك كلب من الكلاب الضالة وأتصرف فى القضية على أساس هذه الحيلة ، ولـكنى خشيت أن يحسب حضرة الكبير الأمثل المدعى عليه أنى أعرض به ، فيؤدى الأمر الى ما لا رجاء فيه ولا فائدة منه ولا خير من ورائه •

وعدت الى نفسى أتدبر الأمر من جديد وأخيرا قلت : لا بأس فى أن أجرب ، فلعلى أجد من التجربة ما يحسم الأمر فى هذه القضية بما أريد ، ثم استمهلت الرجلين قليلا ، ودخلت الى الدار وأخذت أحاول عض أذنى باذلا فى المحاولة كل سبيل : فمرة أشد أذنى لعلها تصل الى أسنانى،وأخرى ألوى عنقى لعل أسنانى تطول أذنى ، وبينا أنا على هذه الحال تخـاذلت ساقاى فجأة فوقعت على الأرض فشج رأسى وتحطم جسمى ، وسال الدم على وجهى حتى خضب لحيتى •

وتحاملت على نفسى ونهضت ثم عصبت رأسى ، وخرجت لأفصل فى القضية بما خبرت وجربت فما رآنى صاحب الدعوى حتى صاح :

ـ أنصفنا يا مولانا القاضى وأنت قاضى المسلمين وامام المنصفين : هل فى استطاعة انسان أن يعض أذن نفسه ؟

قلت : نعم يا ولدى يعض الانسان أذن نفسه ويقع على الأرض فيشج رأسه ويتحطم جسمه فاحمد الله على أن عضضت أذنك فحسب ، والا فتلقى مالاقيت !

لا شيء !

أقلق راحتى رجلان اختصما على .. لا شيء !

وروى الأول قصته فقال : ان صاحبى طلب منى أن أعاونه فى حمل حزمة ضخمة من الحطب وأنا رجل لا أظفر باللقمة الا مغموسة فى عرق الجبين ، فسألته قبل العمل عما سيعطينى من الأجر فقال : لا شيء !

وقبلت ، وأديت العمل على خير ما يحب ، وقد عاونت الرجل فى حمل الحطب من الأرض وبذلت فى ذلك كل جهدى وطاقتى حتى استقر كما يريد ، ولكنه أبى أن يعطينى ما اشترطنا عليه من الأجر وهو لا شيء !

وتحدث الرجل الآخر فأقر بوقائع الدعوى وقال : ليس له فى ذمته أى أجر لخصمه ، لأنه لما سأله عما سيعطيه من الأجر قال له : لا شيء !

ودار لجاج بين الرجلين ، وارتفعت أصواتهما فى الخصام على لا شيء !

وبدا لى أن أرفض الدعوى لأنها غير ذات موضوع وأن أزجر الرجلين على هذا العبث الفارغ ، ولكن قليلا من التفكير ردنى الى الصواب وعولت على أن يأخذ صاحب الأجر أجره وهو لا شيء !

لا شيء ! انه لموضوع هذه الحياة فى بدايتها وفى نهايتها وفى كل شأن من شئونها ؟ فهى أول عدم ، وآخر عدم ، ثم لا شيء !

أنا وأنت وهؤلاء الناس جميعا فى أى شيء نخاصم ونزاحم ونناضل ونكافح ؟ وماذا نفيد لأنفسنا ولغيرنا من وراء هذا كله ؟ لا شيء ! ثم لا شيء !

ووجودنا على هذه الأرض ، ماذا هو ؟ وماذا يكون ؟ ألسنا نولد ونعيش ثم نمضى بعد هذا كله ولا شيء !

وفاضت نفسي بالعطف على صاحب الدعوى فقربته منى وربت على كتفه فى حنان ولطف ، ثم سألته :

ماذا يريد ؟

فقال :

ـ لقد أقر خصمى بصحة الدعوى ، وانى أطلب أجـــرى الذى اتفقنا عليه وهو لا شيء !

قلت : انه يا أخى أجر باهظ لا يقدر هو عليه ، ولا يقدر عليه أحد من الناس ، وأبهظ شيء فى الحياة هو ما كان فوق الطاقة ، ومن الذى يقدر على أن يدفع لك لا شيء !

قال : كذلك طلبت ، وكذلك رضى ، وقد أقر بذلك ، ولا بد من لا شيء !

قلت : حقا يا أخى ! شرط ومشروط ، وقضية فيها خصمان ، ولابد على القاضى من أن ينصف المظلوم فهل لك أن تمد يدك فترفع الوسادة التى الى جانبك ؟

ومد الرجل يده فرفع الوسادة •

قلت : انظر ماذا تحتها ؟

قال : لا شيء !

قلت : هو يا سيدى أجرك الباهظ ، فخذه ان شئت وان قبلت !

حل موفق :

تقدم الى رجلان فى دعوى ادعى فيها أحدهما على الآخر بأنه اقترض منه مائة دينار على أن يردها اليه بعد شهر ، ولكن مر شهر وشهران ولم يردها اليه كما وعد !

فقلت في نفسي : مسألة بسيطة ، وقضية وجه الحكم فيها واضح ، فقد قال السابقون : البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، وعلى أساس ما شرع لنا السابقون نقيم العدل بين الناس •

والتفت الى صاحب الدعوى وسألته : هل عندك بينة على هذا الحق الذي تدعيه ؟

فقال : لقد خدعت في الرجل ، فأعطيته المال ولم أشهد أحدا على ذلك ، ولم أكتب عليه صكا بالمبلغ •

وسألت المدعى عليه ، ولكنه أنكر الدعوى كل الانكار ، وأصر على أنه لم يأخذ درهما واحدا من الرجل !

قلت ما دام صاحب الدعوى قد عجز عن البينة فاليمين على من أنكر، ولا بد لابراء ذمتك من أن تقسم على أنك لم تقترض منه هذا المبلغ ، وما كدت أنطق بالكلمة حتى صاح صاحب الدعوى : كلا يا مولانا الشيخ، انني لا أرضى منه باليمين ، فقد علمت أنه رجل فاسق لا يبالي اليمين الغموس على دينه ، واذا كان قد قبل أن يأكل مالي حراما وأن يجازي احساني بالجحود فهل يتورع بعد ذلك عن أن يقسم كاذبا ؟

وهنا بدت القضية مشكلة ، وكنت أحسبها بسيطة هينة وخاصة أني أعلم أننا قد أصبحنا في زمن فاسد لا يبالي فيه الناس شهادة الزور ، ولا يتـورعون عن القسم بالأيمـان المغلظة زورا ، وأهـل بلدنا يقولون في أمثالهم : قالوا للحرامي احلف قال جه الفرج !

وأخذت أفكر طويلا لعلي أجد حلا لهذه القضية المشكلة ، وكنت كلما فكرت زادت أمامي اشكالا وتعقيدا •

وبعد تفكير طـويل أشرق على العـلم من بابه ، فالتفت الى صاحب الدعـوى وقلت : انك يا أخي على حق اذا لم تقبـل اليمين من فاسق ، ولكنك لا شك تقبله من رجل صالح فاضل •

قال : أجل وأين أهل الفضل والصلاح ؟

قلت : ان امام مسجدنا رجل عالم اشتهر في الناس بالزهد والورع والتقوى والصلاح فلا بأس من أن يؤدى لك هذا اليمين وتعطيه بعض الشيء !

كل صاحب حق :

خيبة الله على تلك المرأة زوجتي ، ولعنته عليها دائما أبدا فانها تأبى الا أن تدس أنفها في كل شأن من شئوني ، وتحاول أن تفسد على تفكيري وتدبيري ، ولو أدى ذلك الى الاضرار بنا والبخس بأرزاقنا ، وقد كدت اليوم أن أخرج من حلمي فألوى عنقها وأحطم رأسها ، وأرسل بها الى العالم الآخر غير مرحومة ولا مأسوف عليها ، لولا أنني تذكرت أني قاض ، ومن واجب القاضي أن يكون شديد التقى وأن يخشى الله فيما يقول وما يفعل !

فقد كنت أجلس في الدار فجاءني شخص وحدثني عن دعوى له على شخص آخر ، وبعد أن أشار وفهمت اشارته قال :

ـ يا مولانا أنت شيخنا وقاضينا وقد حدثتك بدعواى واني لصاحب الحق فيها .

قلت : أجل يا أخي ، انك والله لصاحب الحق كله .

وما كاد الرجل ينصرف من عندي حتى جاءني خصمه ، فتقدم وسلم وقص على القضية مطولة مفصلة ، وفي أثناء الحديث غمزني بحاجبه غمزة فهمت ما وراءها ، وبعد أن انتهى من حديثه .

قال : هذه يا مولانا القاضي هي دعواى وقضيتي واني لصاحب الحق فيها .

قلت : أجل يا أخي انك والله لصاحب الحق كله .

وغضبت زوجتى لما رأت وسمعت ولم يعجبها ما قلت للرجلين •

فقالت : كيف يصح هذا يا جحا : حضرتك قاض أم فاض ؟ جاءك الرجل الأول فقلت له : انك صاحب الحق ، ثم جاءك خصمه فقلت له : انك صاحب الحق ! فكيف يكون الخصمان صاحبى حق معا فى دعوى واحدة ؟

والملعونة زوجتى تعلم علم اليقين ان الرجل الأول قد حمل الى دارنا جرة سمن ، وأن الرجل الآخر قد جاءنا بجرة عسل ، وما دام هناك سمن وعسل فكل الناس صاحب حق وأنف الحق راغم ، ولا بد أن تتسع ذمة (الدعوى) فيصير كل المتخاصمين أصحاب حق فيها ، ولكن اللجاجة غريزة فى النساء والثرثرة مأثورة عنهن ، ولم أشأ أن أدخل مع زوجتى فى مناقشة أو مخاصمة خشية أن يسمعنا أحد فيفتضح الأمر فأذعنت قائلا :

ـ أجل يا زوجتى وأنت والله فيما قلت صاحبة حق !

طالع السعد :

ما كنت أحسب أن الناس أقدام وطوالع فىالخير والشر حتىرأيت ما رأيت •

فقد خرج الطاغية تيمورلنك ، وخرجنا معه فىرحلة الىالضواحى، والأقاليم ليطمئن على اذعان الناس لجبروته ومذلتهم لطغيانه ، وما رأيت أحدا كهذا الرجل يسره ذل الناس ، ويزدهيه بؤسهم وشقاؤهم •

ونزلنا أول يوم على قرية ، نشب فيها حريق أكل دورها وشتت أهلها وتركها خرابا بلقعا ، ورأى الطاغية هذه الكارثة الطامة ، فزمجر غضبا وصاح : فلتأكلهم النار جميعا ، ولكن لن ينقص المفروض عليهم •

وفى اليوم الثانى نزلنا على قرية ، فقيل لنا : ان دارا سقطت علىسكانها

فمات تحت الأنقاض كثيرون من الرجال والنساء والاطفال ، فقهقه الطاغية وقال : ولماذا يتركون الدار تسقط عليهم ؟

وفى اليوم الثالث نزلنا على قرية وقد انحدر عليها السيل من الجبل، فجرف بيوتها ، وأهلك أهلها ، فلما علم الطاغية بذلك قال : ولماذا لم يدفعوا السيل عن أنفسهم ؟

وفى اليوم الرابع نزلنا على قرية فقيل لنا : ان عجلا انطلق فنطح عددا كبيرا من الناس ، فمنعهم من بقر بطنه ، ومنهم من قلعت عينه أو عيناه ، وقيل للطاغية فقهقه قائلا : ما أحرى بهذا العجل الشجاع أن يكون فارسا فى الجيش !

وهالنى ما رأيت من الشنائع والفظائع ، فمثلت بين يدى الطاغية فى تضرع وابتهال وقلت : يا مولانا السلطان ، ان طالع السعد يبدو حيث سرتم ، وطائر اليمن يقر حيث حللتم ، وفى كل يوم يشرق الخير من جبينكم على هؤلاء المساكين ! وأخشى أن تمتد رحلتكم أكثر من هذا فيكون فى هذا هلاك العباد وخراب البلاد !

الفصل الخامس

جحا وحماره!

خلع جحا على حماره كثيرا من آرائه وفلسفته فى الحياة ، فقد عاش الناس على طول الزمن وهم يضربون بالحمار المثل فى البلادة والغباء واحتمال الذل والهوان ٠

وكان جحا قد أراد بهذا أن يقول للناس : ان الحمار أذكى من كثير من الناس ، وأحكم وأكرم من كثير من الناس !

زينة الحياة :

أردت أن أحقق لنفسى شيئا من زينة الحياة الدنيا ، وبعد تفكير فى الأمر عولت على أن أشترى حمارا فقد جاء فى القرآن الكريم : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة » •

وانما سميت الخيل من الخيلاء وهى منـــذ كانت مركوبة للملوك والطغاة والجبابرة العتاه ، ومطية أهل الحرب فى الكر والفر ، والقتـل والطعن والعياذ بالله ، ولست من هؤلاء ، ولا أحب أن أكون منهم بل ان شيئا لا يملأ نفسى بالرعب والفزع والضيق مثل رؤيتهم أو ســـماع سيرتهم •

وكذلك البغل حرون بطبعه شرس بغرائزه : فان شبع تملكه الحمق والبطر ، وأصبح غير مأمون الشر حتى مع صاحبه ، وكأن الله قد أراد أن يجتث أصله من هذه الدنيا فجعله حيوانا عقيما لا يلد !

أما الحمار فأليف وديع ، طبعه الصبر ، ومن خلقه التواضع ثم هو ذلول يركبه الرجل والمرأة والفتى والصبى ، ولهذا كان من قديم الزمن مطية الأنبياء والصالحين • تجلى له ملاك الرب كما تقول التوراة وتكلم فكان كلامه معجزة لبنى الانسان ، وقد ركب يسوع المسيح الحمار فى رحلته الى مصر مع والدته مريم العذراء ، ثم عاد الى فلسطين على ظهره، ولما دخل يسوع الى أورشليم للمرة الأخيرة دخلها راكبا جحشا ابنا لأتان كما يقول الانجيل ، وكذلك نبينا عليه الصلاة والسلام ، قد ركب الحمار وقد جاء فى الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعود المريض ويشيع الجنائز ، ويركب الحمار ويجيب

دعوة العبد وقد رئى فى يوم قريظة والنضير على حمار مخطوم بحبل من ليف وعليه اكاف من ليف •

ونحن العلماء ، ورثة الأنبياء ، بهم نقتدى ، وبهديهم نهتدى ، فلا أقل من أن يكون لنا بهم قدوة فى ركوب الحمار ، وعلى هـذا عولت على أن أشترى لنفسى حمارا لأحقق بذلك القدوة بالأنبياء والصالحين ، وأحقق لنفسى شيئا من زينة الحياة الدنيا كما جاء فى القرآن الكريم •

الله كريم !

اشتدت رغبتى فى شراء حمار ، وطال شوقى الى تحقيق هذه الرغبة التى ملكت على كل حواسى ومشـاعرى ، وكنت كلما رأيت جلفا من الأجلاف يركب حمارا قلت فى نفسى : سبحان مقسم الحظوظ والأرزاق! حمير تركب حميرا ! ونحن العلماء نركب الأقدام !

وفى يوم صممت على أن أشترى الحمار ، وأن أحقق رغبة نفسى، ولكن ماذا أصـنع ، وليس عنـدى دراهم ، وهى وحـدها التى تحقق الرغبات ، وتقضى للناس جميع المطالب ؟

وأخذت أفكر فى هذا الأمر لعلنى أجد بابا أدخل منه الى تحقيق هذه الرغبة فما وجدت أمامى أى باب يمكن أن يدخل منه الانسـان ، وقد يكون من المقبول أن نقترض من الناس لنأكل ، ولكن ليس من المقبول ولا من المعقول أبدا أن تقول للناس : أقرضونى مالا لأشترى حمارا ! فانهم فى هذه الحـال سيشبعونك ذما وتوبيخا ، وقد يشـبعونك ضربا وتلطيخا !

وسرت فى الطريق أفكر ، وأقدر ، وبينا أنا غارق فى تفكيرى اذ وقعت على فردة حدوة ، مما يستعمل فى نعال الحمير ، فانطلقت بها فرحا مسرورا ولقينى صديق فقال لى : ما بالك يا جحـا هكذا يفيض وجهك بالبشر والسرور ؟

فقلت : الله كريم ، فان نفسى تتوق الى شراء حمار ، وقد رزقنى الله فردة نعل ، وبقيت ثلاث وحمار حتى تتحقق الأمنية ، وتدبير هـذا مما يهون !

ان شاء الله :

هبت على نفحة من كرم الله ، فرزقنى دراهم معدودة ، فسررت بها أيما سرور ، وعولت على أن أشترى بها حمارا تحقيقا للرغبـة التى طالت فى نفسى مع الأيام •

وعلمت زوجتى بالأمر فطالبتنى بشراء خلخال لها بدلا من الخلخال الذى بعته لسداد دين البقال ، فطيبت خاطرها ببعض الكلمات ، ووعدتها بالنظر فى هذا الأمر عند الصباح •

وبت ليلتى قلقا ، ثم نهضت مبكرا ، فأديت الصلاة لوقتها، وخرجت من الدار دون أن تعلم زوجتى قاصدا الى السوق لشراء الحمار •

ورآنى رجل من بلدتنا وأنا مسرع فى طريقى فنادانى : الى أين أنت ذاهب يا جحا ؟

قلت : الى السوق •

قال فى سماجة وبرود : ولماذا ؟

قلت : لأشترى حمارا •

قال : قل ان شاء الله •

وأنا رجل مؤمن بالله وأعتقد أن كل شىء فى الحياة بقضائه وقدره، ولكن سماجة هذا الدعى الزنيم غاظتنى وأخرجتنى عن طوقى ، فقلت : ولماذا تشترط على هـــذا الشرط ؟ ان الدراهم فى جيبى ، والحمير فى السوق !

ومضيت حتى انتهيت الى السوق ، ونزلت فى سوق الحمير وأقبـل السماسرة والماكسون ، وما زلت معهم حتى انتهيت الى شراء حمار على قدر ما معى من النقود ، وقرأناالفاتحة ، ثم ضربت يدى فى جيبى لأخرج الدراهم ، ولكنى مع شدة الأسف لم أجد شيئا !

وخرجت من السوق مشيعا بمقت السماسرة وسخريتهم ، وسرت فى الطريق حزينا كئيبا مكسور الخاطر،حتى اذا مررت على ذلك الرجل النحس صاح بى :

ـ من أين أنت قادم يا جحا ؟

قلت : من السوق ان شاء الله .

قال : ولماذا كنت فى السوق ؟

قلت : لأشترى حمارا ان شاء الله ، وقد سرقت النقود ان شاء الله ! .. ولكن قولوا لى أيها الناس : ماذا يمكن أن أقول لزوجتى صـاحبة الخلخال ؟

لابد من الحمار :

لم أيئس من شراء الحمـار قط وقلت لنفسى اننى ما دمت أريد ، فلا بد أن أصل الى ما أريد ، واذا كنت اليوم لا أملك نقودا فان الله كريم يرزق الانسان من حيث لا يحتسب .

وما زلت أجمع الدراهم الى الدرهم ، وأضم الدانق الى الدانق ، وكنت فى بعض الأحيـان أشد على بطنى من الجوع ، وصرت لا أهتم بمشاكسة زوجتى ولا أعنى بسماع كلامها الفارغ ، حتى وقفت بعـد جهد الى جمع مبلغ أستطيع به اقتناء حمار ، وقصدت الى السوق هـذه المرة وأنا يقظ حـذر ، وحرصت على أن أمسـك الدراهم فى قبضـتى ووجدت جماعة فى السوق أحاطونى بالاحترام ، وبذلوا لى كل مظاهر

الاكرام ، وكان أن ساعدونى على شراء الحمار وأعتقد أنه يساوى ضعف ما دفعت فيه ، وقد أمسكت بمقبضه وخرجت من السوق أجره من خلفى وأنا فرح مسرور لا يكاد الطريق يسعنى كبرا واعجابا !

ومضيت فى الطريق وكأن الدنيا كلها قد أصبحت ملكى ، وأخذت أحدث النفس بما سيكون من شأنى مع الحمار ، وبدا لى أن ألقى عليه نظرة من ورائى ، ولكنى مع الأسف لم أجد فى المقود من خلفى الا رجلا بدلا من الحمار !

وتملكنى العجب والفزع ، وصحت فى الرجل ما شأنك ؟ فقال لى وهو يبكى : لقد عصيت والدتى فدعت على أن يمسخنى الله حمارا ، وكان من أمرى ما كان ، وباعونى لك فى السوق ، وكنت كما ترى !

وأدركت حقيقة الأمر ، وتيقنت أن أولئك الخبثاء الأنذال الذين أحاطونى بكرمهم فى السوق ، وباعونى الحمار بأقل مما يستحق قد غافلونى فى الطريق ، وخلعوا رأس الحمار وأنا أمسك بمقبضه ، وعلقوا هذا الرجل منهم مكانه ، وكانت الكارثة التى أصابتنى جزاء غفلتى .

ولكن ماذا أصنع ؟ وبأى طريق يمكن أن أسترد حمارى ، أو نقودى ؟

اننى لم أرد أن أكون مغفلا مرة ثانية ، وأن أشغل نفسى بما لا يفيد ، فأطلقت سراح الرجل ، وقلت له : امض لشأنك ، وحذار أن تعصى والدتك مرة أخرى ، فتكون حمارا تستغفل أمثالى من عباد الله الحمير !

أصبحت صاحب حمار :

قال الأولون : مصائب قوم عند قوم فوائد ، ولكنى والله لا أحب أن تكون لى فائدة على حساب أحد من الناس ، وكنت دائما أرى من النذالة أن أتمنى شرا لغيرى ليكون لى من ورائه فائدة .

غير أن الأقدار كثيرا ما تأتى بما ليس فى الحسبان ، وهكذا أراد الله أن تحقق أمنيتى العزيزة من وراء هلاك غيرى ، وأن أكون صاحب حمار ولكن من تركة عزيز صديق .

فقد مات امام المسجد في بلدتنا ، وقد كان رجلا طيبا ، وليس هذا مما يعنينى ، فالطيبون وغير الطيبين يموتون ، وانما يعنينى أن أقول لك : ان المرحوم كان صاحب حمار فاره عظيم ، ولم يكن له وارث الا زوجته، وهى شيخة محطمة ، لا يعنيها الحمار فى شىء ، فجاءت الى وكلمتنى فى أن أتولى وظيفة زوجها فى المسجد على أن يكون الأجر بيننا مناصفة .

وتحلب ريقى على هذه الوظيفة مع أنها كانت نصف دخل ، غير أنى أردت أن أبدى للمرأة شيئا من التمنع ، وجلسنا نذكر المرحوم وخصاله الحميدة ، وتباكينا عليه ، وترحمنا ، ثم قلت لها : ان الذهاب الى المسجد كل صلاة يكلفنى مشقة ، وليس مما يليق بى فى هذه السن أن أقضى نهارى ذاهبا آيبا فى الطرقات ، فقالت : خذ حمار الشيخ لتركبه على أن تتولى عليقه ، فانه يكلفنى كثيرا ، وليس فى نيتى بيعه لأنه من رائحة المرحوم !

وأسرعت فوضعت يدى على الحمار ، ونقلته الى دارى ، وحسب الناس جميعا أننى اشتريته بمالى ، ولكن حدث مرة أخرى ما ليس فى الحسبان ، فقد ماتت المرأة العجوز بعد أيام ، ولم يكن هناك من يرثها ، أو يذكرها .

وهكذا أصبح الحمار حمارى ، ولكن ابراء للذمة لم أنس أن أقرأ سورة على روح المرحومة والمرحوم !

عزة الحمير :

طاف برأسى خاطر لا شك أنى فيه على حق :

فقد كنت أنظر الى حمارى وهو يسير مختالا ، فقلت لنفسى : ليس

من المعقول أن الحمار كان ذليلا فى نفسه ، وانما ذل الحمار ومهانته من ذل الانسان له على طول السنين ، وقد ساعد على هذا تواضـع الحمار ، وطول حلمه وصـــبره ، والناس دائما أشد ما يكونون قسوة واحتقارا للمتواضع الصبور •

وقلت لنفسى : اننى مخلوق ، وهذا الحمار أيضا مخلوق مثلى،وهو لا شك يمتاز عنى بأنه لا يحقد ولا يبغض ، ولا ينافق ، ولا يغدر ولا يكذب ، وأنه منزه عن كثير من اللؤم الذى تنطوى عليه جوانح الانسان!

وخرجت من هذا التفكير بأن أعاهد الله على رعاية كرامة حمارى ، وأن أنظر اليه دائما على أنه مخلوق مثلى ، له حريته ، وله عزته ، وله تقديره ورأيه ، وهكذا فعلت •

وكنت أسير ممسكا بلجام الحمار ، آخذا بزمامه فى حزم وشدة ، جاذبا بفكه الى رقبته ، فقلت : ان هذه قسوة لا تليق ، وما دمت قد عولت على رعاية كرامة الحمار ، فلابد أن أطلق له العنان •

ــ وسرعان ما نفذت الأمر ، فرفعت اللجام من فكه ، وأخرجت رجلى من الركاب ، ولكن الملعون سرعان ما انطلق فى الطريق على غير هدى ، وهو يخبط مرة هنا ومرة هناك ، وصرت أتطوح من فوق ظهره ، فلم يكن لى هم الا المحافظة على حياتى من الخطر ، وأصبحت عاجزا عن كبح جماحه بعد أن تركت الزمام من يدى •

ورآنى أحد أصحابى وأنا على هــذه الحال ، لا أدرى الى أين أتوجه ؟ فصاح بى : الى أين يا جحا ؟•

قلت : الى حيث يريد الحمار يا سيدى ما دمنا قد رضينا أن نعيش بعقل الحمير !



أينا أعقل ؟!

سألت نفسي : هل أنا أعقل أو حماري ؟ صحيح ان الناس جميعا يقولون ان الحمار لا عقل له ، ولكن من يدريني أن الناس جميعا مجانين وأن العقل في الحمير وحدهم ، وما العقـــل ؟ وأين هو ؟ وبأي شيء عرفناه ؟

سيقول لي متفلسف : اننا عرفنا العقل بالعقل ! وهل من المعقول أن يعرف الشيء نفسه بنفسه وأن يحكم العقل بأنه العقل .

وطال تفكيري في هذا الأمر على غير جدوى ، وأخـــذت أعرض تصرفات حماري وتمييزه للأشياء ويقظته في الاستدلال على مداخل الطرق ومسالكها ، فقلت : انه والله لحمار عاقل ، وما في ذلك ريب .

وكان الحمار يسير أمامى ، وهو يحمل حمــلا كبيرا من القش فقلت : لا مانع والله من أن أجرب ، وأن أجعل من التجربة دليلا عـلى عقل هذا الحمار .

وأسرعت فأخرجت عود ثقاب من جيبى ، وأشعلت النار فى القش وسرعان ما ارتفع اللهيب فى الجو . وأخذت النار تلسع الحمار ،فاندفع يجرى فى الطريق ، والهواء يزيد النار اشتعالا ، وكلما لسعت الحمار اشتد عدوا حتى عجــزت عن اللحاق به ، وانقطعت أنفاسى من الجرى خلفه .

وكانت أمامنا بركة فسيحة ، فأخذت أصيح بالحمار : أسرع الى البركة أيها العاقل فهى وحدها التى تطفىء لهيبك ، وتنقذك من ورطتك، وطالما صحت وناديت ! ولكنه حمار !

شهادة الحمير :

كنت أحسب أن المعروف يضيع عند بنى آدم وحدهم ، حتى علمت أخيرا أنه ضائع كذلك عند الحيوان الذى لا ينطق ولا يتكلم ، فقد كاد حمارى لعنة الله عليه يوردنى مورد الهلاك الشنيع ، وأن يختم حياتى أبشع خاتمة .

وتفصيل الأمر أقصه عليكم يابنى آدم ، فقد نمى الى حاكم بلدتنـا أننى أتسلل كل ليلة على حمارى الى الاكراد ، فأجلس معهم وأسامرهم وأنقل اليهم أخبار البلدة ، والحاكم أشد ما يكون كراهية لهؤلاء القوم ، وهم أعداؤه الألداء الذين يتمنى زوالهم من فوق هذه الارض ، فقـد أراد أن يتزوج ابنة شيخ قبيلتهم ، وهى فتاة جميلة مليحة ، ولكن شيخ القبيلة رأى أنه أخس وأحقر من أن يتطاول الى هذا النسب . وأرسل الحاكم فى طلبى ، فأخذونى اليه فى غلظة وفظاظة ، وأدخلونى عليه وهو يتميز من الغيظ ، فصرخ فى وجهى قائلا : هل أنت جاسوس لأولئك القوم اللئام ؟ لابد والله من أن تلقى جزاءك ، ولا أقل من الموت !

وأنكرت التهمة ، وقلت : قطع الله دابر القوم الكافرين ، فهم ليسوا منا ، ولسنا منهم ، وكيف أكون صديقا لأعداء مولانا الحاكم العظيم ؟ وكيف تتهمونني بهذه التهمة الشنيعة وليس لديكم عليها شهود؟

وكان في المجلس رجل خبيث ، فقال : يا مولانا ان الشيخ يقصد الى هناك راكبا حماره ، وليس أعرف بالطريق من الحمير ، فان الحمار اذا سار في طريق مرة واحدة فانه لا ينساه أبدا ، فخذوا حمار الشيخ الى باب الطريق وأطلقوه ، فاذا سار الى هناك ثبتت التهمة ، وكان الحمار من خير الشاهدين !

ووافق الحاضرون على هذا التفكير ووافقت كذلك ، وقلت في نفسي : انه ليس من المعقول أن يشهد حماري علي ، وأن يفشي سري للناس ، وما قصرت في خدمته يوما ، ولا أذكر أني أرهقته بحمل ثقيل ولا تهاونت في توفير الشعير والماء له !

وأرسلوا في طلب الحمار ، وما كادوا يقفون به على الطريق حتى انطلق على وجهه الى حيث كنت ألتقي بالقوم وأجلس معهم .

وزمجر الحاكم اللعين ، وصاح : ها قد ثبتت التهمة ، ولابد من قطع رقبتك .

فقلت وفرائصي ترتعد من الفزع ، هب يا مولانا أنك فعلت ، ولكن هل تدري ماذا يقول الناس عنك ؟

قال : وماذا يقولون ؟

قلت : سيقولون : لقد قتل رجلا لا جريرة له بشهادة حمار،وليس يعول على شهادة الحمير الا الحمير !

تكذبني وتصدق الحمار ؟

كأن الأقدار تأبى الا أن تضايقني بالثقلاء ، ومن مأمنه يؤتى الحذر كما قيل ، فقد هبط على رجل ثقيل لم أعرفه والله قبل ذلك ، ولا رأيته

قط ، ولكنه سلم على فى غير مبالاة كأن بيننا معرفة أبدية ، ثم جلس الى جانبى فى ألفة بلا كلفة ، وبعد أن أعاد التسليم مرتين ، وكرر التحيـة مرتين مال على أذنى وطلب منى أن أعيره حمارى ليقضى به بعض مصالحه

وحمـــارى كما يعرف النـــاس عزيز على ، وقد ملكنى الله اياه لاستخدامه فى مصالحى لا فى مصالح الناس ، فأنا فى الحقيقة لا أملك التصرف الا الى هذا الحد ، ثم ماذا أفيد من ذلك الرجـــل المجهول اذا ما لبيت طلبه ؟ أيقول عنى صاحب فضل وأريحية ؟ ولكنه لا شك سينهال على حمارى ضربا ، سيوسعه هو وصاحبه سبا وشتما اذا ما ناء بحمله ، أو توقف خطوة فى الطريق ، وبعد أن وازنت الرأى فى تقـــديرى ، اختصرت الأمر على نفسى من أقرب طريق ، فقلت للرجل :

ان الحمار لا شك حمارك ، والدار دارك ، ولك فى مالنا ما تطلب وما ترغب ، وقد كنت أرجو تحقيق رغبتك على العين والرأس ، ولـكن أحد الأصحاب سبقك فاستعار الحمار لبعض مصالحه .

وقبل الرجل العذر ، أو قل : ان العذر الشديد أخرسه فلم يتكلم ، وكادت المسألة تنتهى على هذا الوجه المقبول ، ولكن الحمار الملعون أبى الا أن يفضحنى ويخجلنى ، فنهق داخل الدار وارتجت من عنف صوته الجدران .

وسرعان ما رأيت الرجـــل يرمقنى شزرا ، كأنه أمسك بى وأنا أسرق بيته ، أو كأننى جئت بالشفاعة التى لا تليق ، ثم مط شفتيه قائلا فى لهجة ساخرة منكرة :

كيف تقول يا جحا ان الحمار غير موجود ، وهو ينهق داخـــل الدار ؟

وبدا لى أن ألتمس للخروج من المأزق عذرا مقبولا ، فأزعم للرجل أن ذلك نهيق الجدران أو أنه حمار لعابر سبيل أودعه ايانا ، ولـكنى

رأيت أن أنصف نفسي من سماجته بحجة أوقح من وجهه فقلت : مهلا يا صاحبي ، لقد قلت قولا ، وقال الحمار قولا ، فمن العيب أن تكذبني وتصدق الحمار !

مشاورة الحمار :

لست أدري : هل هو حماري سبب متاعبي ، أو هي لجاجة أولئك الثقلاء الذين يحسبون أن وجودهم ضريبة علي وعلى أمثالي من عباد الله المساكين ؟

فما كاد الرجل الأول ينصرف من عندي ، وما كادت أنفاسي تستقر في جوفي ، حتى حضر الى رجل آخر يسألني أيضا أن أعيره حماري ليركبه في قضاء شأن له .

وقلت في نفسي : يا لثقل هؤلاء وسماجتهم ! وهل حسبوا أن جحا أصبح مكاريا من المفروض عليه أن ينقل الناس على حماره الى حيث يريدون بدون أجر أو حسبوا أنني وقفته صدقة على عباد الله السخفاء فيمتطي ظهره منهم من يشاء ، أو هم شركاء لي فيه وأنا لا أدري ؟

وتملكني الغيظ ، وانتفضت غضبا وأنا الذي لم أغضب في الملمات قط ، وبدا لي أن أهوى على الرجل بضربة يكون فيها عبرة لغيره،ولكني سرعان ما رجعت الى طبيعتي في ايثار الحلم والأناة والتعويل على الحيلة في تصريف الأمور .

ولكن ماذا أقول للرجل ؟ هل أقول له ما قلت لصاحبه من أن الحمار غير موجود ، أو أزعم له أنه مريض ، أو أني في حاجة اليه الى آخر تلك الحجج التي ربما لا تستساغ عند الرجل ، وقد يفضحني فيها الحمار كما فضحني في المرة السابقة ؟ وأخذت أدبر الرأي في مكري ثم قلت : والله ليس أسلم علي من أن أضعها في عنق الحمار هذه المرة فأجعل مرد الأمر اليه ، ولا أقل من أن يكون هو صاحب الأمر في نفسه.

وأمهلت الرجل قليلا ، ودخلت الدار وخرجت ثم قلت له :

ـ آسف يا صديقي فقد شاورت الحمار في الأمر ، ولكنه أبى أن يذهب معك وقال : اني أخدم الناس وأحمل لهم أثقالهم ، ثم لا أجد منهم الا الضرب واللعن !

وتعجب الرجل مما أقول ، ثم قال : ومتى كان الحمير يتكلمون يا جحا ؟ ومتى كان لهم رأي ؟

قلت : هو ما ترى وما تسمع ، فكم من حمير تتكلم ، ولها مشورة ورأي !

زوجتي وحماري :

لا يزال المرء في مأمن من الدهر ، فاذا ما عثر مرة لج به العثار ، وتتابعت عليه النكبات : هكذا قال الأولون ، وهكذا كان شأني ، فقد ماتت زوجتي ، وعلى الرغم مما لاقيت من مشاكسة هذه المرأة وما أصابني من طول لسانها فاني حزنت عليها ، ولبست من أجلها السواد ، فان الشريك المتاكف خير من الوحدة على أية حال .

ولم تمض الأيام حتى مات حماري ، فكانت هذه الحادثة قاصمة الظهر ، وكانت النكبة لا تحتمل ، والتي لم أطق عليها صبرا قط .

وكنت كلما تذكرت حماري العزيز ، والعمر الطيب الذي قضيته في صحبته ، اشتد بي الحزن وطال بكائي ونحيبي على طلعته البهية التي لم تكتحل عيني باستجلائها مرة أخرى .

وأقبل الناس على يلومونني ويقولون : ما هذا يا جحا ؟ لقد ماتت زوجتك وهي شريكة حياتك فكان حزنك عليها عابرا ! ثم مات حمارك فما انقطع بكاؤك عليه ، ولا خف حزنك عنه ، فهل كان حمارك أعز من زوجتك ؟

قلت : يا قوم حسبكم ، فهذا والله هو شأنكم : ماتت زوجتى فكل من جاء لعزائى منكم قال لى : لا تحزن فالنســـاء غيرها كثيرات ، وبعض يقول : ان أختى يمكن أن تكون خير زوجة لك ، وبعض يقول : ان مما يسرنى أن تكون صهرى بزواج ابنتى ، ثم مات حمارى ، فما وجـدت واحدا منكم يقول لى ولو من باب المجاملة : سآتيك بحمار غيره !

الفصل السادس

جحا ونوادره

أسئلة وأجوبتها

في بعض الناس مقدار من الفضول لا يحتمل ، وأسمج مايكون هـذا الفضول اذا كان فيمـا لا يغني ولا يفيد •

ويبدو أن جحا كان هدفا لكثيرمن فضـول العابثين والهـازلين وأهل الغباوة في عصره ، فكانوا يقصدونه بالسؤال عن أشياء لا هي من العلم ولا من الجهل ! وكأنهم بهـذا كانوا يضعونه موضع الاختبـار ، فكان يجيبهم اجابة الساخر الذي يحرص على كشف نفسية السائل قبل الحرص على طلب الجواب •

وقد ترك جحا في مذكراته فصلا جمع فيه بعض ما وقع له من الأسئلة، وما أفاد به من الأجوبة عنها ، فليقرأ القارىء هذه الأجوبة ، لا على أنها مما يدخل في باب العلم والمعرفة ، بل على أنهـا باب من أبواب الفـكاهة الممتعة ، والسخرية اللاذعة والتهكم المر الأليم ، وأنه لأقل ما يكون من الجزاء للفضوليين !

العين والضرس :

شكا الى أحد الناس من وجع عينـــه ، وسألنى أن أصف له دواء ناجحا شافيا كأنه حسبنى أبقراط الطبيب أو جالينوس الحكيم .

فقلت له : لقد وجعنى ضرسى بالأمس فلم أجد له علاجا الا قلعه وانى أحسب أن العين كالضرس !

مكان الحق :

سألنى التلاميذ فى الدرس : أين مكان الحق يا مولانا الشيخ ؟

قلت : فى الزمن القديم كان الحق فى كل مكان ، أما فى هـــذا الزمن فليس له مكان ! ولا يوجد فى أى مكان !

الكنز الذى لايفنى :

سألونى فى مجلس حاكم بلدتنا : هل صحيح يا جحا أن القنــاعة كنز لا يفنى ؟

قلت : أجل ، ولكنه كنز لا يطعم جائعا ، ولا يكسو عاريا ، وهو لا يوجد الا عند الذين لا يجدون !

السير مع الجنازة :

سألنى رجل من المتحذلقين : اذا أردت السير مع الجنازة فهل أمشى وراءها أو أمامها ؟

قلت لا تكن فى النعش وامش حيث شئت !

موضع النظر :

كنت أسير على شاطىء البحيرة فسألنى شيخ متعبد : اذا أرادالانسان الاستحمام فالى أى جهة يوجه نظره يا فقيـــه ؟ وهل يستقبل القبلة أو يستدبرها ؟

فقلت : عليه أن يوجه نظره تماما الى ثيابه حيثخلعها ، والا سرقها اللصوص !

بالأصابع الخمس :

كنت أتناول طعامى فى نهم ورغبة شديدة فسألنى أحدهم : ما هذا يا جحا ، كيف تأكل بأصابعك الخمس ؟

قلت : طبعا يا سيدى لأن الله لم يخلق لى ست أصابع !

لابد من القطران :

أصيبت شاة لأحد الفلاحين بالجرب ، فأحضرها وسألنى أن أقرأ عليها رقية حتى تشفى •

فقلت له : ولكن لأجل أن يكون برء الشاة مضمونا لابد أن تخلط هذه الرقية بشىء من القطران !

الهلال القديم :

اختلف أهل بلدتنا فى الهلال القديم وأين يذهب اذا ما ظهر الهلال الجديد ، فجاءوا الى يسألوننى فى هذه المسألة التى أشكلت عليهم •

فقلت : ان الله على كل شىء قدير وحد معرفتى أنه يقطع قطعا صغيرة وتصنع منها النجوم التى تملأ السماء !

السلطان والزارع :

قال لى شيخ بلدتنا فى يوم : السلطان أكبر أم الزارع ؟

قلت : طبعا الزارع أكبر ، لأنه اذا لم ينتج القمح مات السلطان جوعا !

نعوذ بالله :

سألنى الطاغية تيمورلنك فى عنجهية وصلف .

ـ تعلم يا جحا أن خلفاء بنى العباس كانوا يختارون لهم ألقابا ، فمنهم الموفق بالله ، ومنهم المعتصم بالله ، ومنهم المتوكل على الله ، فلو أنى كنت واحدا منهم فماذا كنت أختار لنفسى من الألقاب ؟

قلت : كنت تدعى بلقب (نعوذ بالله !) .

الشمس والقمر :

سألنى أهل بلدتنا عن الشمس والقمر وأيهما أكثر فائدة للناس من الآخر ؟

فقلت : ان الشمس تنير فى النهار ولا حاجة للناس الى النور فى النهار ! أما القمر فيبزغ فى الليل ، وينير فى الظلام ، ولهذا كان أعظم فائدة من الشمس !

قيام الليل :

كنا فى المسجد نتحدث عن العبادة والتهجد فسألونى : هل تقوم الليل يا جحا ؟

قلت : أجل فانى أقوم فى الليل لأشرب ثم أرجع الى فراشى .

حب المال :

قال لى رجل معروف بالبخل والشح : هل تحب المال ؟

قلت : نعم ، حتى أستغنى عن سؤال البخلاء الذين لا ضميرعندهم!

قسمة عادلة :

قال لى امام مسجدنا : انك عالم يا جحا فى الحساب ، وعندى مسألة حيرت عقلى ، فلعل عندك لها الجواب ، فكيف تقتسم أربعة دنانير على ثلاثة رجال ؟.

قلت : للرجل الأول ديناران ، وللثانى ديناران ، ولن يبقى للثالث شىء فيصبر حتى يفرج الله بدينارين فيأخذهما !

لا أدرى :

حضر الى رجل وقال : انه سمع عن علمى الواسع بجميع المسائل، وانه جاء مسافرا من أقصى الاقطار وعنده أربعون مسألة يرجو الجواب عنها ، ثم أخذ يسرد على مسائله حتى انتهى منها وجلس ينتظر الجواب.

قلت : هذه أربعون مسألة وليس لها الا جواب واحد !

قال : وما هو ؟

قلت : لا أدرى !

علم الموتى :

قام خلاف بين أهل بلدتنا حول طول الدنيا ، ثم جاءوا يسألوننى. هل لك أن تفيدنا يا جحا عن طول الدنيا وكم يبلغ بالذراع ؟

قلت : هذا من علم الموتى ، فاذا لقيتم ميتا فاسألوه عن ذلك لأنه ذرع الدنيا وعداها الى الآخرة !

بين المشرق والمغرب :

كنت مسافرا ، فاجتمع على أهل القرية فى الطريق يسألوننى عن المسافة بين المشرق والمغرب وطولها بالتحديد .

فقلت : ذلك سفر يوم للشمس لا ينقص عن ذلك ولا يزيد •

ضيف الله :

كنت واقفا أمام المسجد فى بلدتنا ، فجاءنى رجل غريب يقول : انى ضيف الله •

قلت : ضيف الله ينزل فى بيت الله وهذا بابه !

الدعاء المجاب :

كنا فى المسجد وقد جلس أهل البلدة يدعون الله فى جلبة وجلست ساكتا ، فقالوا لى : لماذا لا تدعو الله معنا أيها الشيخ ؟•

قلت : أريحوا أنفسكم فان الله لا يستجيب الا من المؤمنين •

خلاصة الطب :

كانوا فى مجلس تيمورلنك يتحدثون عن الأمراض وطبها ثم سألونى : ما خلاصة الطب عندك أيها الشيخ ؟

قلت : الطعام الجيد والبعد عن أراذل الناس !

قوم فى ناقة !

كنت أعظ الناس فأخذت أخوفهم عذاب الله وشدة عقابه •

فقالوا : ما هذا كله أيها الشيخ ؟ أليس الله يقول فى كتابه : ان الله غفور رحيم ؟

قلت : ولكن لا تنسوا أنه أهلك قوم صالح جميعهم لأنهم عقروا ناقته !

العثور على المفقود :

ضاع حمارى فأخذت أنادى فى الناس : من وجده فليأخذه

فقالوا : اذن لماذا تجهد نفسك فى السؤال عنه ؟

قلت : لأن العثور على المفقود لذة لا تعد لها لذة !

يطلق نفسه :

سألنى أحد أصدقائى : هل لك يا جحا أن تتزوج ؟

قلت : لو استطعت لطلقت نفسى !

الدار والمزرعة !

حضر الى رجل من الفلاحين يشكو من أن داره لاتدخلها الشمس، وهذا ما يضر صحته وصحة أولاده ويسألنى ماذا يصنع لتلافى هـذا الخطر ؟

قلت : وهل تدخل الشمس الى مزرعتك ؟

قال : انها تغمرها من كل جانب .

قلت : اذن الأمر فى غاية البساطة ، فما عليك الا أن تنقل دارك الى مزرعتك !

الأمنية الوحيدة :

قابلنى ثقيل وسألنى فى سماجة ورقاعة : ماذا تتمنى على الله أيها الشيخ ؟

قلت : أمنيتى الوحيدة ألا أرى وجوه الثقلاء !

لايسمع نصحى :

مات حاكم بلدتنا فسألونى أن أقرأ على قبره وألقنه .

فقلت : ذلك رجل عاش فى حياته لا يقبل منى نصحا ، وما أحسبه قد غير طبعه فى مماته .

غاية السلامة :

قالوا لى : ان الرجس فى بلدكم يا جحا .

قلت : أليس بعيدا عن حارتنا ؟

قالوا : بلى ، هو فى حارتكم .

قلت : ولكنه بعيد عن دارنا .

قالوا : بل فى داركم .

قلت : ما دام بعيدا عنى فلا شىء هناك !

لاتشعل النار فى البيت :

كنا نتنـــاول الغذاء فى دارنا ، فسألنى ابنى : أنت أكبر يا أبتى أم أمى ؟.

قلت : لا تشعل النار فى البيت يا خبيث ، ودعنا نسعد بغذائنا ، لقد أنجبتك وكانت أمك لا تزال طفلة !

عقل المرأة :

جاءنى رجل وشكا الى من أن زوجته قد فقدت عقلها .

فقلت : لابد أنها يا أخى قد فقدت شيئا آخر ، فقد أقنعتنى زوجتى بتصرفاتها بأن المرأة لا عقل لها .

توازن الأرض :

كنت أعظ فى المسجد ، فقالوا لى : اذا أصبح الصباح رأينا النـاس يخرجون من بيوتهم ، فهـــذا يذهب الى جهة ، وذاك يذهب الى جهـة أخرى ، فلماذا لا يذهب الناس فى اتجاه واحد ؟

قلت : تلك حكمة الله العالية ، وانما يذهب الناس كل الى جهة حتى تحفظ الارض توازنها والا فلو قصدوا الى جهة واحـــدة لاختل توازن الأرض وسقطت !

الولد سر أبيه :

حضر الى رجل معروف بالشح وشكا الى من أن زوجته تجد عسرا فى الولادة ، وقال انها تطلق منذ ثلاثة أيام ولكن الولد لايريد أن يخرج.

فقلت : أسمعوه رنين النقود فانى أعتقد أنه سيخرج اليكم مسرعا !

الفصل السابع

مما نسب إلى جحا في النوادر !

الصفحات التالية لم يكتبها جحا ، وليست من مذكراته ، ولكنها مما كتبه الناس عن جحا ونسبوه اليه ٠

وليس من شك في أن الناس قد اخترعوا كثيرا من النوادر والحكايات وأوردوها على لسان جحا ٠ وزعموا أنها من صنع جحا ومن عمله ، وقد رأينا أن نورد فيما يلي بعضا من هذه النوادر لأنها تمثل ناحية تتصل بجحا من جهة ، ولأنها من جهة أخرى تعكس صورة من صور الفكاهة والتندر في المجتمع المصرى ٠

امرأة تتزوج امرأة :

تزوج جحا امرأة قبيحة الوجه ، وكلما نظر اليها اغتم وخيل اليه أنها رجل . فيخفى وجهه بيديه .

وفى ذات يوم أطلت زوجه من الشباك ، فوجدت فتاة جميلة تسير فى الشارع . فنادت جحا ، وقالت له : ـ تعال ياجحا وانظر الى هذه الفتاة الجميلة .

فنظر اليها جحا وتحسر على حظه وقال : (آه ! عندى فكرة عظيمة) فقالت زوجته : (وما هى ؟)

فقال جحا : (مارأيك أن تتزوجها معا ؟)

مستعجل جدا !

جاع جحا ولم يكن معه نقود ، فذهب الى مطعم وطلب أصنافا كثيرة من الخضر والفواكه والحلوى ، وأكل منها حتى شبع .

ثم نادى الخادم ، وقال له : ما جزاء من يأكل عندكم ولا يدفع الثمن ؟ فقال الخادم : (نضربه على وجهه) !

فقال جحا : اضرب من فضلك ، لأنى مستعجل جدا !

تجارة وخسارة :

تاجر جحا فى البيض فكان يشترى كل تسع بيضات بقرش ، ويبيع كل عشرة بقرش فتعجب منه الناس ، وقال أحدهم : (انك بذلك . تخسر ياجحا ! وما الفائدة ؟)

فقال جحا : (وهل يجب أن تربح التجارة دائما ؟ ان التجا رةتكسب وتخسر ألا يكفينى أن يقول الناس عنى انى أبيع وأشترى ؟)

يعرف ذنبه .

دخل ثور غيط جحـا ، وجعل يأكل البرسـيم ، ويدوس الزرع فيتلفه ، فجاء جحا ليضربه ، فخاف الثور وجرى فجرى وراءه جحا ، ولكنه لم يدركه ، وبعد أيام قابل جحا الثور مع صاحبه ، فأخـذ يضربه بالعصا .

فقال له صاحبه : (ماذا فعل الثور حتى تؤدبه ؟)

فقال جحا : (اسكت أنت . الثور يعرف ذنبه !)

حزنا على والد ابنه .

لبس جحا ملابس سوداء ، فقابله صديق له ، وسأله عمن مات من أهله أو أصحابه .

فقال جحا : (أكل من يلبس ملابس سوداء يكون قد مات له قريب أو صاحب ؟)

فقال الصديق : (ذلك هو المعروف عند كل الناس)

(فقال جحا اذا كان الأمر كذلك فأنى ألبس الأسود حزنا على وفاة والدابنى !)

لص خائب :

دخل لص بيت جحا ليسرقه ، فأحس به جحا ولكنه لم يتحرك ، بل ترك اللص يجمع كل مايصادفه فجمع اللص كثيرا من الملابس والأثاث ولم يترك الا ما ليس فيه نفع .

وبعد أن خرج اللص قام جحا وجمع مافى الحجرة ، وذهب الى منزل السارق قبل وصوله .



فلما دخل اللص منزله وجد به جحا فدهش ، وقال : (ما الذى جاء بك الى هنا يا جحا ؟)

فقال جحا : (انك قد سرقت كل مافى بيتى من ملابس وأثاث ، ولم تبق لى شيئا له قيمة فرأيت أن أنتقل الى هنا !)

ظننت أنك أنا :

قابل جحا رجلا لا يعرفه فأخذ يحادثه ، وكأنه صديق قديم ، ولما أراد الرجل الانصراف سأله جحا عن اسمه :

فقال الرجل : كيف تحادثني بدون كلفة وأنت لا تعرفني من قبل ؟

فقال جحا : « اعذرني يا سـيدي فاني رأيت عمامتك كعمـامتي وقفطانك كقفطاني فظننت أنك أنا ! »

الميت الحى !

جلس جحا مع زوجته يتحادثان فقالت له : ان المرء اذا مات بردت يداه ورجلاه .

وفي يوم ركب جحا حماره وذهب الى الصحراء ليجمع الحطب ، وكان الجو باردا فأحس ببرودة أطرافه ، فتذكر حديث زوجته وأيقن أنه سيموت ، فنام في ظل شجرة واستعد للموت ، وترك حماره يأكل الحشيش بجانبه .

فأتت الذئاب ، وأكلت الحمار أمامه ، فاغتـاظ منها وقال لهـا : آه يا خسارة ! لو لم أكن ميتا لانتقمت من هـذه الذئاب اللعينـة التى تنتهز الفرصة وتأكل الحمار ، وهى تعلم أن صاحبه ميت ، ولا يستطيع أن يحميه منها !) .

في الخرج :

ذهب جحا الى السوق ليبيع حماره ، وبينما هو في الطريق لاحظ أن ذيل حماره ملوث بالروث فقطعه ، ووضعه في الخرج ، ولما دخل السوق عرض حماره على الناس فعاينوه ، ولكنهم امتنعوا عن شرائه لأنه مقطوع الذيل ! فقال لهم جحا : (لا تخافوا نتفق أولا على الثمن ، والذيل هنا في الخرج !) .



الحمد لله :

غسلت زوجة جحا قفطانه ، ونشرته على حبل فى حديقة البيت ، وكان الهواء شديدا فجعل يهتز ويتمايل •

وفى الليل قام جحا ، وأطل من زجاج النافذة على الحديقة ، وكان الظلام شديدا ، فخيل اليه أن جثة كبيرة تتحرك وتتمايل ، فأحضر غدارته وأطلق منها رصاصة على الجثة فأصابتها ، فهدأ جحا واطمأن قلبه ، وذهب الى فراشه ونام •

وفى الصباح قام من نومه ، وذهب الى الحديقة ، فرأى القفطان وقد خرقته الرصاصة فشكر الله ، وحمده على رحمته •

فعجبت منه زوجته ، وقالت له : (لم كل هذا الشكر الكثير يا ترى ؟) •

فقال جحا : (اسكتى يا زوجتى ، ألا ترين أن الرصاصة قد خرقت القفطان ، ولو كنت ألبسه لمت قتيلا ؟) •

البعد عن الزوجة :

غضبت زوجة جحا فى يوم ، فقالت له : (ابتعد عنى) •

فلبس حذاءه ، وخرج من البيت ، ومشى مسافة طويلة حتى وصل الى نهاية البلدة ، فقابله جار له على حمار ، فقال له جحا : (اذا وصلت بسلامة الله الى البيت فقل لزوجتى : هل تريدين أن يبتعد زوجك عنك أكثر مما ابتعد ؟

رأسه مزروع قطنا :

ذهب جحا الى حلاق ، ليحلق شعر رأسه ، وكان الموسى كليلا ، وكلما جره الحلاق فوق رأسه جرحه • فيضع على الجرح قطعة من القطن ، حتى أصبح نصف رأسه كأنه مزروع قطنا •

ولما أراد الحلاق أن يحلق النصف الآخر من رأسه قال له جحا : عرفنا أن هذه الناحية مزروعة قطنا ، فماذا تريد أن تزرع فى الجهة الأخرى ؟

قاض فى الجنة :

كان جحا قاضيا للبلد ، وفى يوم جلس مع قاضيين من أصدقائه ، وجاء ذكر الحديث (قاض فى الجنة ، وقاضيان فى النار) •

فقال جحا : (صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا القاضى الذى سأدخل الجنة !) ••

يعرف ماذا يصنع :

نزل جحا ضيفا عند جماعة ببلدة قريبة من بلدته ، فسرق اللصوص خرجه ، فلما بحث عنه لم يجده ، فصاح فيهم : (ابحثوا عن خـرجى والا عرفت ماذا أصنع ؟

فبحث أهـل البلدة عن خرجه ، وأخيرا وجـدوه عند جماعة من اللصوص فأحضروه اليه ، ثم سأله أحدهم : (اذا لم نجد خرجك فماذا كنت تصنع ؟

فقال جحا : « عندى بساط قديم ، أعمل منه خرجا ! » •

هات حمارين:

قال السلطان لجحا : اطلب منى أى شىء أنفذه حالا •

فقال جحا : « لا أطلب يا مولانا السلطان غير شىء واحد ، وهو أن تصدر أمرا بأن آخذ حمارا من كل رجل يخاف امرأته) •

فأصدر السلطان أمرا بذلك •

وبعد أيام رأى السلطان جحا ماشيا يسوق أمامه حميرا كثيرة ، والغبار يملأ البلد من كثرتها فأمر باحضاره ، وسأله عن حاله ، فقـال جحا :

(انى كلما رأيت رجلا يخاف امرأته أخذت منه حمارا كأمرك)•

فهش السلطان ، لأن أكثر الناس يخافون زوجاتهم •

ثم قال جحا : (وانى رأيت بنتا فى البلدة المجاورة لنا جميلة كالقمر

شـــعرها ذهبى وعيناها زرقاوان • وأســـنانها كاللؤلؤ وعنقهـا كابريق الفضة و •••) •

فقال السلطان : (اخفض صوتك يا جحا لئلا تسمعك زوجتى ، فانها شديدة الغيرة قاسية على) •

فضحك جحا ، وقال : (أنا آخذ حمارا من كل رجل من الشعب يخاف امرأته وأنت يامولاى ســـلطان ، ولا بد أن تمتـاز عنهم ، هات حمارين !) •

ميت اسود :

ماتت جارية سوداء لأبى جحا فأعطاه نقودا ، وأمره أن يذهب الى السوق لشراء كفن لها •

فتلهى جحا بمناظر السوق ، وأبطأ على أبيه ، فأرسل غيره يشترى الكفن ، وحمل الناس النعش ، وساروا به الى القبر ، وفى آخر النهار ذهب جحا الى أبيه ومعه الكفن ، فوجد الجنازة قد شيعت الى القبر ، فدار بين المقابر وهو يقول :

(أيها الناس ، هل رأيتم ميتا أسود وكفنه معى ؟)

خروف القرع :

أعطاه أبوه نقودا ، وقال له : اذهب الى السوق • واشتر لى رأس خروف •

فذهب جحا الى الســوق ، واشترى خـروفا ، وأكل جلده وأذنيه وعينيه ولسانه فى الطريق ، ولـما وصل الى منزله ، قدم الرأس الى أبيه•

فقال له : (هذه جمجمة يا جحا) فقال جحا : (لا يا أبى ، بل رأس خروف !) •

فقال أبوه : ـ (أين أذناه ؟) •

فقال جحا : (كان الخروف أصم !) •

فقال أبوه : (وأين عيناه ؟) •

فقال جحا : (وكان الخروف أعمى !) •

فقال أبوه : (وأين جلد رأسه ؟)

فقال جحا : (كان الخروف أقرع !) ••

شيء مدهش :

سافر جحا مع جماعة الى بلد ما ، فلما جاء الليـل حطوا رحالهم وأناخوا جمالهم ، وقال أحدهم : (ليحفظ كل منكم متاعه ، لئلا يسرقه اللصوص) •

وكان مع جحا صرة فيها نقود ، فخاف عليها فغرز رمحا فى الأرض• ووضعها فوق الرمح فسرقها اللصوص ، ووضعوا مكانها روث بهيمة •

فلما أصبح الصباح ، ذهب جحا ليأخذ الصرة ، فلم يجدها •

فدهش وقال : (لا تدهشنى سرقة النقود ، ولكنى أعجب من البهيمة التى صعدت فوق الرمح وراثت عليه !) ••

امه ترجع طفلة :

قسا جحا على أمه ، فقالت له : (أهذا جزائى ، وقد حملتك فى بطنى تسعة أشهر ؟) •

فمل جحا معايرتها ، فقال : (ادخلى فى بطنى لأحملك تسعة أشهر كما حملتنى !) •

فقالت له : (وانى قد أرضعتك سنتين) .

فقال لها : (وأنا مستعد أن أرضعك سنتين ، كما أرضعتنى ، ولكن على شرط أن ترجعى طفلة صغيرة !) .

نسيت أنا :

سأل السلطان جحا : (كم ولدا لك ؟)

فقال جحا : (لى ثمانية أولاد) .

فسر السلطان ، وأمر له بثمانية آلاف درهم ، فأخذها جحا . وشكر السلطان ، ومشى ، ولما وصل الى الباب رجع الى السلطان وقال له : نسيت واحدا من عيالى) .

فقال السلطان : (ومن هو ؟)

فقال جحا : (أنا) .

فضحك السلطان ، وأمر له بمال كثير .

ان تهت فخبرنى :

أرسل جحا خادمه الى بلدة بعيدة ليشترى له ما يريد ، ولم يكن الخادم يعرف الطريق جيدا ، فخاف أن يذهب ليضل ، فقال له جحا :

لا تخف ، وان تهت فتعال وأخبرنى ، وأنا أدلك على الطريق !

بركة يا جامع :

غضب جحا من زوجته ، فترك لها البيت .

وبعد أيام قال له أصحابه : (ان زوجتك قد ماتت) .

فقال جحا : (بركة يا جامع !) .

فقال أصحابه : (هل أنت مسرور من موت زوجتك ؟) .

فقال : (لو لم تمت لكنت عازما على طلاقها !) •

اذا كانت رجلا :

تزوج جحا امرأة سمينة جدا ، وكان يخافها لأنها كانت تؤذيه ، وفى مرة جرت وراءه بالعصا ، فهرب منها تحت السرير ، فلم تستطع أن تدخل وراءه ، لأنها سمينة جدا • فلما تيقن جحا أنها لا تصل اليه •

قال وهو تحت السرير : (اذا كنت رجلا فادخلى هنا !) •



لص ماهر :

دخل جحا مطعما ليأكل فيه ، فلاحظ أن لصا غريبا عن البلدة وضع الشوكة والملعقة والسكين في جوربه •

فنادى جحا صاحب المطعم ، وقال له : (انى ساحر عظيم ، فأقفل أبواب المطعم لأريكم مهارتى فى السحر !)

فأقفل صاحب المطعم الأبواب ، واجتمع الزبائن حوله ، ليروا فنون سحره • فوقف جحا على كرسى ، وقال : (أنا ساحر عظيم ، انظروا ماذا أفعل) •


ثم أخذ ملعقة وشوكة وسكينا ، ووضعها فى جوربه ، وقال : (أنا قد وضعت أدوات الأكل فى جوربى ، واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أخرجوها من جورب هذا الرجل •

وأشار جحا الى اللص ، فأخـرجها المتفرجـون من جوربه ، فهلل الناس وزاطوا ، وصفقوا كثيرا لمهارة جحا فى السحر !

وفى الطريق قابل جحا اللص ، فقال له : (احذر أن أراك فى بلدتنا مرة أخرى والا كشفت أمرك للناس !) •

فهرس


الدار القومية للطباعة والنشر



الدار القومية للطباعة والنشر

العدد ١١٧

الثمن

١٩٦٥/٦/٣٠